١/١٨ / وقـــال :

## فَصْـل

قال ﷺ في الحديث المشهور في السنن من رواية فقيهى الصحابة ، عبد اللّه بن مسعود، وزيد بن ثابت : « ثلاث لا يُغَلُّ عليهن قلبُ مسلم : إخلاص العمل للّه ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » (١) . وفي حديث أبي هريرة المحفوظ : « إنَّ اللَّهَ يَرْضَى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تَعْتَصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ، وأن تَنَاصَحوا من ولاَّه الله أمركم»(٢).

فقد جمع في هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث ؛ إخلاص العمل للّه، ومناصحة أولي الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين . وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده، وتجمع الحقوق التي للّه ولعباده ، وتنتظم مصالح الدنيا والآخرة .

وبيان ذلك أن الحقوق قسمان : حق للّه ، وحق لعباده . فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئًا ، كما جاء لفظه في أحد الحديثين ؛ وهذا معنى إخلاص العمل للّه، كما جاء في الحديث الآخر. وحقوق العباد قسمان: خاص وعام؛ أما الخاص فمثل: برّ كل إنسان والديه، وحق زوجته، وجاره، فهذه من فروع الدين ؛ لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه؛ ولأن مصلحتها خاصة فردية .

وأما الحقوق العامة فالناس نوعان: رعاة ورعية؛ فحقوق الرعاة مناصحتهم، وحقوق
١/١٩ الرعية لزوم جماعتهم ؛ فإن مصلحتهم لا تتم إلا باجتماعهم ، وهم لا يجتمعون / على ضلالة، بل مصلحة دينهم ودنياهم في اجتماعهم واعتصامهم بحبل اللّه جميعا، فهذه الخصال تجمع أصول الدين .

وقد جاءت مفسرة في الحديث الذي رواه مسلم عن تَمِيم الدَّارِيّ قال: قال رسول الله ﷺ : «الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول اللّه؟ قال: «للّه ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم» (٣) . فالنصيحة للّه ولكتابه

(١) سبق تخريجه ص ١٢ .
(٢) مسلم في الأقضية (١٧١٥/ ١٠)، ومالك في الكلام ٢/ ٩٩٠ (٢٠) ، وأحمد ٢/ ٣٢٧، ٣٦٠.
(٣) مسلم في الإيمان (٥٥/ ٩٥) .

ولرسوله تدخل في حق اللّه وعبادته وحده لا شريك له، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هي مناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعتهم ، فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة، وأما النصيحة الخاصة لكل واحد منهم بعينه ، فهذه يمكن بعضها ويتَعذَّر استيعابها على سبيل التعيين.

١/٢٠ / وقال شيخ الإسلام ـ قَدسَ اللَّه روحه :

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليما .

وبعد : فهذه قاعدة جليلة في توحيد الله، وإخلاص الوجه والعمل له، عبادة واستعانة، قال الله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ الآية [آل عمران:٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ﴾ [الأنعام:١٧] ، وقال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]، وقال تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود:٨٨]، وقال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التغابن :١] ، وقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد:١٩] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم (١) مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ الآية [الزمر:٣٨]، / وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ

١/٢١

(١) في المطبوعة : « قل أرأيتم » ، والصواب ما أثبتناه .

وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً . الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية [الفرقان: ٥٨، ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ الآية [البينة: ٥]. ونظائر هذا في القرآن كثير، وكذلك في الأحاديث ، وكذلك في إجماع الأمة ، ولاسيما أهل العلم والإيمان منهم، فإن هذا عندهم قطب رحى الدين كما هو الواقع.

ونبين هذا بوجوه نقدم قبلها مقدمة .

وذلك أن العبد ، بل كل حي ، بل وكل مخلوق سوى الله ، هو فقير محتاج إلى جَلْب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرَّة هي من جنس الألم والعذاب؛ فلابد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

والثاني : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه. وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء :

أحدها : أمر محبوب مطلوب الوجود .

/ والثاني : أمر مكروه مبغض مطلوب العدم. ١/٢٢

والثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد ، بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها، وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر .

إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه :

**أحدها** : أن الله تعالى هو الذي يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه ؛ فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه ، وهذا معنى قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب؛ فالأول: من معنى الألوهية. والثاني: من معنى الربوبية؛ إذ الإله : هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكرامًا . والرب : هو الذى

يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها .

وكذلك قوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقوله : ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان:٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:٣٠]، وقوله : ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً . رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٨، ٩] .

فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين.

١/٢٣ / **الوجه الثاني** : أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه، ومحبته والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته فى الآخرة تَقَرُّ عُيونهم ولا شيء يعطيهم فى الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ؛ ولا شيء يعطيهم فى الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه فى عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم فى خلقه لهم وربوبيته إياهم؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ، ولا نعيم ولا لذة ، بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى.

ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله ، رأس الأمر .

فأما توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام ؛ فلا يكفى وحده ، بل هو من الحجة عليهم، وهذا معنى ما يروى: «يابن آدم، خلقت كل شيء لك ، وخلقتك لى، فبحقي عليك ألا تشتغل بما خلقته لك ، عما خلقتك له » .

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، كما فى الحديث الصحيح، الذى رواه معاذ عن النبى ﷺ أنه قال : « أتدرى ما حق الله على عباده؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم . قال : «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم. قال : «حقهم ألا يعذبهم » (١) .

---

(١) البخارى فى التوحيد (٧٣٧٣) ، ومسلم فى الإيمان (٣٠/ ٥) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٣) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٩٦)، وأحمد ٣/ ٢٦٠، ٢٦١.

/ وهو يحب ذلك ، ويرضى به ، ويرضى عن أهله ، ويفرح بتوبة من عاد إليه؛ كما ١/٢٤
أن في ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه، وقد بينت بعض معنى محبة الله لذلك وفرحه به في غير هذا الموضع .

فليس فى الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ، ويتنعم بالتوجه إليه ، إلا الله سبحانه، ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة فى الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم، فـ ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلها حقّا ؛ إذ الله لا سَمِيَّ له ولا مثل له ؛ فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها هذا من جهة الإلهية.

وأما من جهة الربوبية فشىء آخر ؛ كما نقرره فى موضعه .

واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئا، ليس له نظير فيقاس به ؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة .

فإن حقيقة العبد قلبه، وروحه، وهى لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذى لا إله إلا هو، فلا تطمئن فى الدنيا إلا بذكره ، وهى كادحة إليه كَدْحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا فى وقت وفى بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذى يتنعم به والْتَذَّ غير منعم له ولا ملتذ له ، بل قد / يؤذيه اتصاله به ١/٢٥
ووجوده عنده ، ويضره ذلك .

وأما إلهه فلابد له منه فى كل حال وكل وقت ، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا (إبراهيم) الخليل ﷺ : ﴿ **لا أُحِبُّ الآفِلِينَ** ﴾ [الأنعام: ٧٦] . وكان أعظم آية فى القرآن الكريم: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقد بسطت الكلام فى معنى (القيوم) فى موضع آخر ، وبينا أنه الدائم الباقى الذى لا يزول ولا يعدم، ولا يفنى بوجه من الوجوه.

واعلم أن هذا الوجه مبنى على أصلين :

**أحدهما** : على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته

وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان ، وكما دل عليه القرآن ، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم : إن عبادته تكليف ومشقة ! وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم ؛ فإنه وإن كان فى الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس، والله ـ سبحانه ـ يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة ، كما قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ** ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠] ، وقال ﷺ لعائشة : « أجرك على قدر نصبك» (١) ـ فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعى، وإنما وقع ضمنا وتبعا لأسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر فى موضعه.

ولهذا لم يجئ فى الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح : أنه تكليف ، كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف فى موضع النفى، كقوله: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، / ﴿**لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ**﴾ [النساء: ٨٤]، ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا** ﴾ [الطلاق: ٧] أى: وإن وقع فى الأمر تكليف ، فلا يكلف إلا قدر الوسع ، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفًا ، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه ، وذكره وتوجه الوجه إليه ، فهو الإله الحق الذى تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه فى ذلك أبدًا. قال الله تعالى : ﴿**فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٥] فهذا أصل. ١/٢٦

**الأصل الثانى**: النعيم فى الدار الآخرة أيضًا مثل النظر إليه ، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم، أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق : من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك ، بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق سبحانه وتعالى، كما فى الدعاء المأثور: «اللهم إنى أسألك لذة النَّظر إلى وجهك ، والشَّوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة، ولا فتنة مُضلة ». رواه النسائى ، وغيره (٢) . وفى صحيح مسلم وغيره، عن صهيب عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟! ألم يُبيِّضْ وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويُجرنْا من النار؟! ـ قال ـ فيكشف الحجاب؛ فينظرون إليه ـ سبحانه ـ فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه » (٣) ، وهو الزيادة .

---

(١) الدارقطنى فى الحج ٢/٢٨٦ (٢٢٨) ، والحاكم فى المناسك ١/٤٧١ وقال : «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ».

(٢) النسائى فى السهو (١٣٠٥، ١٣٠٦) ، وأحمد ٥ / ١٩١ .

(٣) مسلم فى الإيمان (١٨١/٢٩٧) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٠٥)، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (١١٢٣٤)، وابن ماجه فى المقدمة (١٨٧) ، وأحمد ٦/١٥، ١٦ .

فبين النبى ﷺ : أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله فى الجنة، لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره. فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له ، وتنعمه به أعظم. / وروى أن يوم الجمعة يوم المزيد ، وهو يوم ١/٢٧
الجمعة من أيام الآخرة ، وفى الأحاديث والآثار ما يصدق هذا، قال الله تعالى فى حق الكفار : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ [المطففين : ١٥، ١٦] . فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب ، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه ـ تعالى.

وهذان الأصلان ثابتان فى الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان، ويتكلم فيهما مشايخ الصوفية والعارفون ، وعليهما أهل السنة والجماعة ، وعوام الأمة ، وذلك من فطرة الله التى فطر الناس عليها.

وقد يحتجون على من ينكرها بالنصوص والآثار تارة ؛ وبالذوق والوجد أخرى ـ إذا أنكر اللذة ـ فإن ذوقها ووجدها ينفى إنكارها. وقد يحتجون بالقياس فى الأمثال تارة ؛ وهى الأقيسة العقلية .

**الوجه الثالث** : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذى خلقه ورزقه ، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله ، وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول ؛ ولهذا خوطبوا به فى القرآن أكثر من الأول ، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن ، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول.

فهذا الوجه يقتضى : التوكل على الله، والاستعانة به ، ودعاه، ومسألته، دون ما سواه. ويقتضى أيضا: محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ/ نعمه عليه، وحاجة ١/٢٨
العبد إليه فى هذه النعم، ولكن إذا عبدوه وأحبوه، وتوكلوا عليه من هذا الوجه، دخلوا فى الوجه الأول. ونظيره فى الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق، فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التى قصدها أولا، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم،

ومن ذكر ما وعدهم فى الآخرة من صنوف النعيم واللذات ، وليس عند المخلوق شىء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

**الوجه الرابع** : أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه ، إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته فى عبادة الله، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ، ضره وأهلكه ، وكذلك من النكاح واللباس ، وإن أحب شيئا حبًا تامًا بحيث يخالله فلابد أن يسأمه، أو يفارقه. وفى الأثر المأثور : « أحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كما شئت فكما تدين تدان » (١) .

واعلم أن كل من أحب شيئا لغير الله فلابد أن يضره محبوبه، ويكون ذلك سببا لعذابه؛ ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله، يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع يأخذ بلهزمته. يقول: أنا كنزك، أنا مالك.

وكذلك نظائر هذا فى الحديث: «يقول الله يوم القيامة : يابن آدم، أليس عدلا منى أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولاه فى الدنيا؟ » (٢) . وأصل التَّولِّى/ الحب؛ فكل من ١/٢٩
أحب شيئًا دون الله ولاه الله يوم القيامة ما تولاه، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا، فمن أحب شيئًا لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد ، أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء . وكل من أحب شيئًا دون الله لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالا عليه، إلا ما كان لله وفى الله ، فإنه كمال وجمال للعبد، وهذا معنى ما يروى عن النبى ﷺ أنه قال : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما والاه». رواه الترمذى ، وغيره (٣) .

**الوجه الخامس**: أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء ، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل. وقد قال الله تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾**

---

(١) الحاكم فى الرقاق ٤/ ٣٢٥ وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى، وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٥ وقال: « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه زافر بن سليمان وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر»، وكشف الخفاء ٢/ ٦٠ (١٧٣٤).

(٢) أحمد ٦/ ١٤٥، ١٦٠ عن عائشة عن النبى ﷺ بلفظ مختلف .

(٣) الترمذى فى الزهد (٢٣٢٢) وقال: «هذا حديث غريب»، وابن ماجه فى الزهد (٤١١٢)، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

[مريم: ٨١، ٨٢] .

وهذان الوجهان فى المخلوقات نظير العبادة والاستعانة فى المخلوق، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كان صلاح العبد فى عبادة الله واستعانته . وكان فى عبادة ما سواه، والاستعانة بما سواه، مضرته وهلاكه وفساده.

**الوجه السادس** : أن الله ـ سبحانه ـ غنى، حميد، كريم، واجد، رحيم، فهو ـ سبحانه ـ محسن إلى عبده مع غناه عنه ؛ يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة وإحسانا والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ، ويجلبوا / له منفعة ويدفعوا عنه ١/٣٠
مضرة ما، وإن كان ذلك أيضًا من تيسير الله تعالى، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله . فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته ، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم ، فهم يحبون التمتع برؤيتهم ، وسماع كلامهم ، ونحو ذلك .

وكذلك من أحب إنسانًا لشجاعته أو رياسته ، أو جماله أو كرمه ، فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة ، ولولا التذاذه بها لما أحبه ، وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ـ ولو بالدعاء أو الثناء ـ فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله ، فأجناد الملوك ، وعبيد المالك ، وأجَرَاءُ الصانع ، وأعوان الرئيس ، كلهم إنما يسعون فى نيل أغراضهم به ، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم، إلا أن يكون قد عُلِمَ وأدِّب من جهة أخرى ، فيدخل ذلك فى الجهة الدينية ، أو يكون فيها طبع عدل، وإحسان من باب المكافأة والرحمة ، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التى أقام بها مصالح خلقه ، وقسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريا .

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد منفعته بك، وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل ، فإذا دعوته ؛ فقد دعوت مَنْ ضَرُّهُ أقْرَبُ مِن نَفْعِهِ .

والرب ـ سبحانه ـ يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضرة. فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو / تطلب منه منفعة ١/٣١
لك ، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول ، كما أنه لا يقدر عليه . ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الإحسان إليهم ، واحتمال الأذى منهم ، بل أحسن إليهم لله لا

لرجائهم، وكما لا تَخَفْهُمْ فَلا تَرْجُهُمْ ، وخَفِ الله فى الناس ولا تخف الناس فى الله، وارج الله فى الناس ولا ترج الناس فى الله، وكن ممن قال الله فيه : ﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى**﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢٠ ] وقال فيه : ﴿ **إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾ [الإنسان: ٩].

**الوجه السابع** : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك ، وإن كان ذلك ضررًا عليك، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

**الوجه الثامن** : أنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض ، فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله ، ولا يقصدون دفعها إلا لِغَرَضٍ لهم فى ذلك .

**الوجه التاسع** : أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك، فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله ، ولا يضرونك إلا بإذن الله ، فلا تُعَلِّقْ بهم رجاءك .

قال الله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ . أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ**﴾ [الملك: ٢٠، ٢١] .

١/٣٢ والنصر يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة / قال الله تعالى : ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش : ٣، ٤] ، وقال تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ [القصص: ٥٧] ، وقال الخليل ـ عليه السلام ـ : ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ** ﴾ الآية [البقرة: ١٢٦] . وقال النبى ﷺ : « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم» (١) : بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم؟

## ١/٣٣ / فَصْـــل

جماع هذا أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك ، ولا قادر عليها ، ولا مريد لها كما ينبغى ، فغيرك من الناس أولى ألا يكون عالما بمصلحتك ، ولا قادرًا عليها ، ولا مريدا لها، والله ـ سبحانه ـ هو الذى يعلم ولا تعلم ، ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله

---

(١) البخارى فى الجهاد ( ٢٨٩٦ ) ، وأبو داود فى الجهاد ( ٢٥٩٤ ) ، والترمذى فى الجهاد (١٧٠٢) ، والنسائى فى الجهاد (١٣٧٩) ، وأحمد ٥ / ١٩٨ .

العظيم ، كما فى حديث الاستخارة : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب» (١) .

## / فَصْـل ١/٣٤

وهو مثل المقدمة لهذا الذى أمامه ، وهو أن كل إنسان فهو همام حارث حساس متحرك بالإرادة ، بل كل حى فهو كذلك له علم وعمل بإرادته . والإرادة هى المشيئة والاختيار، ولابد فى العمل الإرادى الاختيارى من مراد وهو المطلوب ، ولا يحصل المراد إلا بأسباب ، ووسائل تحصله ، فإن حصل بفعل العبد فلابد من قدرة وقوة ، وإن كان من خارج فلابد من فاعل غيره ، وإن كان منه ومن الخارج فلابد من الأسباب ، كالآلات ونحو ذلك ، فلابد لكل حى من إرادة ، ولابد لكل مريد من عون يحصل به مراده.

فصار العبد مجبولاً على أن يقصد شيئا ويريده ، ويستعين بشىء ويعتمد عليه فى تحصيل مراده ، هذا أمر حتْمٌ لازم ضرورى فى حق كل إنسان يجده فى نفسه ، لكن المراد والمستعان على قسمين :

منه ما يراد لغيره ، ومنه ما يراد لنفسه . والمستعان : منه ما هو المستعان لنفسه ، ومنه ما هو تبع للمستعان وآلة له ، فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب ، فهو الذى يذل له الطالب ويحبه، وهو الإله المقصود ، ومنه ما يراد لغيره ، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير، فهذا مراد بالعرض . ومن المستعان ما يكون هو الغاية التى يعتمد عليه العبد ، ويتوكل عليه ، ويعتضد به ، ليس عنده فوقه غاية فى الاستعانة ، ومنه ما يكون تبعًا لغيره، بمنزلة الأعضاء مع القلب ، والمال مع المالك ، والآلات مع الصانع .

/ فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس ، وجدهم لا ينفكون عن هذين ١/٣٥
الأمرين : لابد للنفس من شىء تطمئن إليه وتنتهى إليه محبتها، وهو إلهها. ولابد لها من شىء تثق به وتعتمد عليه فى نيل مطلوبها هو مستعانها، سواء كان ذلك هو الله أو غيره ، وإذا فقد يكون عامًا وهو الكفر ، كمن عبد غير الله مطلقا ، وسأل غير الله مطلقًا. مثل: عباد الشمس والقمر ، وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات ، ويفزعون إليهم فى النوائب .

---

(١) البخارى فى التهجد (١١٦٢) ، وأبو داود فى الصلاة (١٥٣٨)، والترمذى فى الوتر (٤٨٠) وقال: «حديث جابر حديث حسن صحيح غريب » ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٨٣)، وأحمد٣/ ٣٤٤.

وقد يكون خاصًا فى المسلمين، مثل: من غلب عليه حب المال، أو حب شخص، أو حب الرياسة، حتى صار عبد ذلك ، كما قال ﷺ : « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار! تعس عبد الخميصة! تعس عبد الخميلة! : إن أعطى رضى، وإن منع سخط! تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش» (١) ، وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله، بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم ، أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم ، أو أصدقاؤه أو أمواله، هى التى تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية، فهو معتمد عليها ومستعين بها والمستعان هو مدعو ومسؤول.

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة، فمن اعتمد عليه القلب فى رزقه ونصره ونفعه وضره، خضع له وذل ، وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته، لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته، وينسى مقصوده منه، كما يصيب كثيرًا ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان .

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده، فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه، كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله،/ فإذا استشعر قدرته ١/٣٦
على تحصيل مطلوبه استعانه ،وإلا فلا ، فالأقسام ثلاثة ؛ فقد يكون محبوبًا غير مستعان ، وقد يكون مستعانًا غير محبوب ، وقد يجتمع فيه الأمران .

فإذا علم أن العبد لابد له فى كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إلهه، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه ـ وذلك هو صمده الذى يصمد إليه فى استعانته وعبادته ـ تبين أن قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] كلام جامع محيط أولا وآخرًا، لا يخرج عنه شىء ، فصارت الأقسام أربعة :

إما أن يعبد غير الله ويستعينه ـ وإن كان مسلما ـ فالشرك فى هذه الأمة أخفى من دَبيبِ النمل .

وإما أن يعبده ويستعين غيره، مثل كثير من أهل الدين، يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له، وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ، ورزقهم ، وهدايتهم، من جهته من الملوك والأغنياء والمشائخ .

وإما أن يستعينه ـ وإن عبد غيره ـ مثل كثير من ذوى الأحوال، وذوى القدرة وذوى السلطان الباطن أو الظاهر، وأهل الكشف والتأثير، الذين يستعينونه ويعتمدون عليه

(١) البخارى فى الجهاد ( ٢٨٨٧ ) ، وابن ماجه فى الزهد ( ٤١٣٦ ) .

ويسألونه ويلجؤون إليه ، لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله، وغير اتباع دينه وشريعته التى بعث الله بها رسوله .

والقسم الرابع : الذين لا يعبدون إلا إياه ، ولا يستعينون إلا به ، وهذا القسم الرباعى قد ذكر فيما بعد أيضا ، لكنه تارة يكون بحسب العبادة والاستعانة، وتارة يكون بحسب المستعان، فهنا هو بحسب المعبود والمستعان ؛ لبيان أنه لابد لكل عبد من معبود مستعان، وفيما بعد بحسب عبادة اللهْ واستعانته ، فإن الناس فيها على أربعة أقسام .

١/٣٧ / وقال شيخ الإسلام :

## فصـل

في وجوب اختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه، فلا يعمل إلا له ، ولا يرجى إلا هو، هو ـ سبحانه ـ الذى ابتدأك بخلقك والإنعام عليك ، بنفس قدرته عليك ومشيئته ورحمته من غير سبب منك أصلا ، وما فعل بك لا يقدر عليه غيره. ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضرر، فهو الذى يأتى بالرزق لا يأتي به غيره، وهو الذى يدفع الضرر لا يدفعه غيره ، كما قال تعالى: ﴿ **أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ . أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ**﴾ [الملك : ٢٠، ٢١] .

وهو ـ سبحانه ـ ينعم عليك ، ويحسن إليك بنفسه ، فإن ذلك موجب ما تسمى به، ووصف به نفسه ؛ إذ هو الرحمن الرحيم ، الودود المجيد ، وهو قادر بنفسه ، وقدرته من لوازم ذاته ، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته ، لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه، بل هو الغنى عن العالمين ﴿**ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم**﴾ [النمل: ٤٠] ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد** ﴾ [إبراهيم: ٧، ٨] .

١/٣٨ وفى الحديث الصحيح الإلهى: «يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم / وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، ولو قاموا فى صعيد واحد فسألونى، فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى شيئا » إلى آخر الحديث (١).

فالرب ـ سبحانه ـ غنى بنفسه ، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه، واجب له من لوازم نفسه، لا يفتقر فى شىء من ذلك إلى غيره ، بل أفعاله من كماله: كَمُلَ فَفَعَل ، وإحسانه وجُودُه من كماله ، لا يفعل شيئًا لحاجة إلى غيره بوجه من الوجوه، بل كُل ما يريده فعله ، فإنه فعال لما يريد . وهو ـ سبحانه ـ بالغ أمره، فكل ما يطلب فهو يبلغه وبناله ويصل إليه وحده لا يعينه أحد، ولا يعوقه أحد ، لا يحتاج فى شىء من أموره إلى معين ، وما له من المخلوقين ظهير ، وليس له ولى من الذل .

---

(١) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧/ ٥٥ ) .

## / فصـــل

١/٣٩

والعبد كلما كان أذل للّه وأعظم افتقارًا إليه وخضوعًا له ، كان أقرب إليه ، وأعز له، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله . وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيرهُ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ولقد صدق القائل :

بين التذلل والتدلل نقطة ... في رفعها تتحير الأفهـام

ذاك التـذلل شـــــرك ... فافهم يا فتى بالخلف (١)

فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق ، إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم ، كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم ـ ولو في شربة ماء ـ نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله ، ولا يشرك به شيء.

ولهذا قال حاتم الأصم ـ لما سئل : فيم السلامة من الناس؟ قال: أن يكون شيئك لهم مبذولاً وتكون من شيئهم آيسًا ، لكن إن كنت معوضًا لهم عن ذلك وكانوا محتاجين ، فإن تعادلت الحاجتان تساويتم كالمتبايعين ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك .

١/٤٠ فالرب ـ سبحانه ـ أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه، وأفقر ما تكون/ إليه. والخلق أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم ؛ لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم، فهم لا يعلمون حوائجك ، ولا يهتدون إلى مصلحتك ، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم ، فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم ؟ ! فإنهم لا يقدرون عليها، ولا يريدون من جهة أنفسهم ، فلا علم ولا قدرة ولا إرادة . والرب ـ تعالى ـ يعلم مصالحك ويقدر عليها، ويريدها رحمة منه وفضلا، وذلك صفته من جهة نفسه ، لا شيء آخر جعله مريدًا راحمًا، بل رحمته من لوازم نفسه ، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء ، والخلق كلهم محتاجون ، لا يفعلون شيئًا إلا لحاجتهم ومصلحتهم ، وهذا هو الواجب عليهم والحكمة، ولا ينبغي لهم إلا ذلك ، لكن السعيد منهم الذي يعمل لمصلحته التي هي

---

(١) هكذا بالأصل .

مصلحة، لا لما يظنه مصلحة وليس كذلك. فهم ثلاثة أصناف: ظالم، وعادل، ومحسن.

فالظالم: الذى يأخذ منك مالا أو نفعًا ولا يعطيك عوضه، أو ينفع نفسه بضررك.

والعادل: المكافئ. كالبائع لا لك ولا عليك، كل به يقوم الوجود، وكل منهما محتاج إلى صاحبه، كالزوجين، والمتبايعين، والشريكين.

والمحسن: الذى يحسن لا لعوض يناله منك. فهذا إنما عمل لحاجته ومصلحته، وهو انتفاعه بالإحسان، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه من الأجر، أو طلب مدح الخلق، وتعظيمهم، أو التقرب إليك، إلى غير ذلك. وبكل حال: ما أحسن إليك إلا لما يرجو من الانتفاع. وسائر الخلق، إنما يكرمونك ويعظمونك لحاجتهم إليك، وانتفاعهم بك، إما بطريق / المعاوضة؛ لأن كل واحد من المتبايعين والمتشاركين والزوجين محتاج إلى الآخر، ١/٤١
والسيد محتاج إلى مماليكه وهم محتاجون إليه، والملوك محتاجون إلى الجند والجند محتاجون إليهم، وعلى هذا بنى أمر العالم. وإما بطريق الإحسان منك إليهم. فأقرباؤك وأصدقاؤك وغيرهم إذا أكرموك لنفسك، فهم إنما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة، فلو قد وليت ولوا عنك وتركوك، فهم فى الحقيقة إنما يحبون أنفسهم، وأغراضهم.

فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم، تجد أحدهم سيدًا مطاعًا، وهو فى الحقيقة عبد مطيع وإذا أوذى أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغير الأمر بحسب الأحوال، ومتى كنت محتاجا إليهم، نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك.

والرب - تعالى - يمتنع أن يكون المخلوق مكافئا له أو متفضلا عليه؛ ولهذا كان النبى ﷺ يقول - إذا رفعت مائدته -: «الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبا مباركا فيه غير مكفى ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا» رواه البخارى من حديث أبى أمامة [1]. بل ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على العبد وحده لا شريك له فى ذلك، بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله، وسعادة العبد فى كمال افتقاره إلى الله واحتياجه إليه، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه، أى بموجب علمه ذلك. فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم، مثل أن يذهب ماله ولا يعلم، بل يظنه باقيًا، فإذا علم بذهابه صار له حال آخر، فكذلك الخلق كلهم فقراء إلى الله، لكن أهل الكفر والنفاق فى جهل بهذا وغفلة عنه وإعراض عن تذكره والعمل به، والمؤمن يقر بذلك ويعمل بموجب إقراره، وهؤلاء هم

(١) البخارى فى الأطعمة (٥٤٥٨).

عباد الله الله .

/ فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون ١/٤٢
إلا فقيراً إلى خالقه، وليس أحد غنيًا بنفسه إلا الله وحده، فهو الصمد الغنى عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه ، فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته، كما قد بسط هذا فى مواضع .

والإنسان يذنب دائما ، فهو فقير مذنب، وربه تعالى يرحمه ويغفر له ، وهو الغفور الرحيم، فلولا رحمته وإحسانه لما وجد خير إصلا، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه ، وهو محتاج دائما إلى حصول النعمة، ودفع الضر والشر ولا تحصل النعمة إلا برحمته، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته، فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد، كما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء: ٧٩]، والمراد بالسيئات: ما يسوء العبد من المصائب، وبالحسنات : ما يسره من النعم، كما قال : ﴿ **وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ، فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلا وجودًا ، من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق، وإن كان ـ تعالى ـ عليه حق لعباده، فلذلك الحق هو أحقه على نفسه، وليس ذلك من جهة المخلوق، بل من جهة الله ، كما قد بسط هذا فى مواضع .

والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم، كما قال : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠] .

والنعم، وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها، فهو ـ سبحانه ـ المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها، فإنه ـ سبحانه ـ هو الذى خلق العبد وجعله مسلما طائعا، كما قال الخليل: ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴾ [الشعراء: ٧٨] ، وقال: ﴿ **وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ** ﴾ ١/٤٣
[البقرة :١٢٨] ، وقال : ﴿ **اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ** ﴾ [إبراهيم: ٤٠] ، وقال: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة: ٢٤] ، فسأل ربه أن يجعله مسلما وأن يجعله مقيم الصلاة ، وقال : ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ الآية [الحجرات: ٧] ، قال فى آخرها : ﴿ **فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً** ﴾ [الحجرات: ٨ ] .

وفى صحيح أبى داود وابن حبان : « اهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك ، قابليها ، وأتمها علينا» (١) ، وفى

(١) أبو داود فى الصلاة (٩٦٩) ، وابن حبان (٢٤٢٩) موارد الظمآن، وضعفه الألبانى .

الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ] وفى الدعاء الذى رواه الطبرانى عن ابن عباس قال : مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة : « اللهم إنك تسمع كلامى، وترى مكانى، وتعلم سرّى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوَجِل (١) المشفق ، المقر بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته، وذل لك جسده، ورَغِمَ لك أنفسه، اللّهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رؤوفا رحيما، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين » (٢) .

ولفظ العبد فى القرآن يتناول من عَبَدَ الله ، فأما عبد لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبده، كما قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] ، وأما قوله: ﴿ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] ، فالاستثناء فيه منقطع، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء، وقوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٦] ، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] ، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ﴾ [ص: ١٧] و ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠، ٤٤] ، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ [ص: ٤١] ، ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص: ٤٥] ، ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ [ الكهف: ٦٥] ، ﴿ سُبْحَانَ /الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء: ١] ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [ الإسراء : ٣] ، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: ٢٣] ، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [ النجم : ١٠]، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [ الجن: ١٩] ، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان: ١]. ونحو هذا كثير . وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٩٤] ، ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ [الكهف: ١٠٢] قد يقال فى هذا : إن المراد به الملائكة، والأنبياء ، إذا كان قد نهى اتخاذهم أولياء فغيرهم بطريق الأولى ، فقد قال : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

١/٤٤

وفى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى الدَّجَّال : « فيوحى الله إلى المسيح أن لى

---

(١) أى : الخائف . انظر : لسان العرب ، مادة « وجل » .

(٢) الطبرانى فى الكبير ١١/ ١٧٤ (١١٤٠٥) ، وذكره الهيثمى فى المجمع ٣/ ٢٥٥ وقال: «رواه الطبرانى فى الكبير والصغير ، وفيه يحيى بن صالح الأبلى ، قال العقيلى : روى عنه يحيى بن بكير مناكير وبقية رجاله رجال الصحيح » .

عبادًا لا يَدَان لأحد بقتالهم »[1] ، وهذا كقوله : ﴿ **بعثنا عليكم عبادًا لنا** ﴾ [الإسراء: ٥]، فهؤلاء لم يكونوا مطيعين لله، لكنهم مُعَبَّدُونَ ، مُذَلَّلونَ ، مقهورون ، يجرى عليهم قدره.

وقد يكون كونهم عبيدًا : هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفارًا ، كقوله : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [ يوسف : ١٠٦ ] ، وقوله : ﴿ **إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ [مريم : ٩٣ ] أى : ذليلاً خاضعا . ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك ، وإنما الاستكبار عن عبادة الله كان فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥] ، فذكر بعدها أنه يأتى منفردًا، كقوله: ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ [الأنعام: ٩٤] ، وقال: ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ [آل عمران : ٨٣] ، ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ من في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ الآية [ الرعد : ١٥ ] ، وقال : ﴿ **بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ [ البقرة : ١١٦ ] ، فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة ، فإن هذا / لا يقال طوعا وكرها ، فإن الطوع والكره إنما يكون لما ١/٤٥ يفعله الفاعل طوعا وكرها ، فأما ما لا فعل له فيه فلا يقال له : ساجد أو قانت، بل ولا مسلم ، بل الجميع مقرون بالصانع بفطرتهم ، وهم خاضعون مستسلمون ، قانتون مضطرون من وجوه :

منها : علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه . ومنها: دعاؤهم إياه عند الاضطرار . ومنها : خضوعهم واستسلامهم لما يجرى عليهم من أقداره ومشيئته. ومنها : انقيادهم لكثير مما أمر به فى كل شىء ، فإن سائر البشر لا يُمَكِّنُونَ العبد من مراده ، بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذى يكرهه ، وهو مما أمر الله به ، وعصيانهم له فى بعض ما أمر به ـ وإن كان هو التوحيد ـ لا يمنع كونهم قانتين خاضعين، مستسلمين كرهاً ، كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذِّمة وغيرهم ، فإنهم خاضعون للدين الذى بعث به رسله ، وإن كانوا يعصونه فى أمور.

والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعا ، وكذلك لما يقدره من المصائب ، فإنه يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعا ، فهو مسلم لله طوعا ، خاضع له طوعا ، والسجود مقصود الخضوع ، وسجود كل شىء بحَسَبِه سجودا يناسبها ويتضمن الخضوع للرب .

---

(١) مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٩٣٧ / ١١٠) .

وقوله : « لا يَدَان » : أى لا قدرة ولا طاقة . يقال : ما لى بهذا الأمر يد ولا يدان ؛ لأن المباشرة والدفاع إنما يكون باليد. انظر : النهاية فى غريب الحديث ٥/ ٢٩٣ .

وأما فقر المخلوقات إلى الله ـ بمعنى حاجتها كلها إليه ، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها ، وأفعالها إلا به ـ فهذا أول درجات الافتقار ، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها ، وخلقه وإتقانه ، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له ، وله ـ سبحانه ـ الملك والحمد .

١/٤٦ وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب ، فالحدوث / دليل افتقار الأشياء إلى محدثها ، وكذلك حاجاتها إلى محدثها بعد إحداثه لها دليل افتقارها ، فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق .

والصواب : أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه ، بل فقرها لازم لها ، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه ، كما أن غَنَاء الرب وصفٌ لازم له لا يمكن أن يكون غير غنى ، فهو غنى بنفسه لا بوصف جعله غنيًا ، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها ، وهى معدومة وهى موجودة ، فإذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر إلى الخالق كان معناه : أنه لا يوجد إلا بالخالق . هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم ، وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل ، وما أثبته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها ، أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف .

ولكن طائفة تدعى أن افتقارها ، وخضوعها ، وخلقها ، وجريان المشيئة عليها هو تسبيحها وقنوتها ، وإن كان ذلك بلسان الحال ، ولكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله. وقل للأرض : من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج نباتها وثمارها ، فإن لم تجبك حواراً وإلا أجابتك اعتباراً ، وهذا يقوله الغزالى وغيره ، وهو أحد الوجوه التى ذكرها أبو بكر بن الأنبارى فى قوله: ﴿ **كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ [ البقرة : ١١٦ ] قال : كل مخلوق قانت له باشر صنعت فيه وجرى أحكامه عليه ، فذلك دليل على ذله لربه ، وهو الذى ذكره الزجاج فى قوله: ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [ آل عمران : ٨٣ ] قال : إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره فى جِبِلِّهم ، لا يقدر أحد يمتنع من جبلة جبله الله عليها ،

١/٤٧ وهذا المعنى صحيح ، لكن الصواب ـ / الذى عليه جمهور علماء السلف والخلف ـ : أن القنوت ، والاستسلام ، والتسبيح أمر زائد على ذلك ، وهذا كقول بعضهم : إن سجود الكاره وذله وانقياده لما يريده الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر ، وكما قال بعضهم فى قوله : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ** ﴾ [ الإسراء: ٤٤] . قال : تسبيحه دلالته على صانعه ، فتوجب بذلك تسبيحا من غيره ،والصواب : أن لها تسبيحا وسجودا بحسبها .

والمقصود أن فقر المخلوقات إلى الخالق ، ودلالتها عليه وشهادتها ، له أمر فِطْرِىّ فطر

الله عليه عباده ، كما أنه فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات ، كما قد بسط الكلام على هذا فى مواضع ، وبين الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس الشمولى ، والتمثيلى ، فإن القياس البرهانى العقلى ، سواء صيغ بلفظ الشمول ، كالأشكال المنطقية ، أو صيغ بلفظ التمثيل ، وبين أن الجامع هو علة الحكمة ويلزم ثبوت الحكم أينما وجد ، وقد بسطنا الكلام على صورة القياسين فى غير هذا الموضع .

والتحقيق : أن العلم بأن المحدث لابد له من محدث هو علم فطرى ، ضرورى فى المعينات الجزئية ، وأبلغ مما هو فى القضية الكلية ، فإن الكليات إنما تصير كليات فى العقل بعد استقرار جزئياتها فى الوجود ، وكذلك عامة القضايا الكلية ، التى يجعلها كثير من النظار المتكلمة والمتفلسفة أصول علمهم ، كقولهم : الكل أعظم من الجزء ، أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، والأشياء المساوية لشىء واحد متساوية ونحو ذلك ، فإنه أىّ كلى تصوره الإنسان علم أنه أعظم من جزئيه ، وإن لم تخطر له القضية الكلية ، كما يعلم أن بدن الإنسان بعضه أكثر من بعض ، وأن الدرهم أكبر من بعضه ، وأن المدينة أكثر من بعضها ، / وأن الجبل أكبر من بعضه ، وكذلك النقيضان وهما : الوجود والعدم ، فإن ١/٤٨
العبد إذا تصور وجود أى شىء كان وعدمه ، علم أن ذلك الشىء لا يكون موجودا معدوما فى حالة واحدة ، وأنه لا يخلو من الوجود والعدم ، وهو يقضى بالجزئيات المعينة ، وإن لم يستحضر القضية الكلية ، وهكذا أمثال ذلك .

ولما كان القياس الكلى فائدته أمر مطلق لا معين ، كان إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب ، كما نزل به القرآن ، وفطر الله عليه عباده ، وإن كانت الطريقة القياسية صحيحة ، لكن فائدتها ناقصة ، والقرآن إذا استعمل ـ لعله فى الآيات الإلهيات ـ استعمل قياس الأولى لا القياس الذى يدل على المشترك ، فإنه ما وجب تنزيه مخلوق عنه من النقائص والعيوب التى لا كمال فيها ، فالبارى ـ تعالى ـ أولى بتنزيهه عن ذلك ، وما ثبت للمخلوق من الكمال الذى لا نقص فيه كالحياة ، والعلم ، والقدرة ، فالخالق أولى بذلك منه ، فالمخلوقات كلها آيات للخالق ، والفرق بين الآية وبين القياس : أن الآية تدل على عين المطلوب الذى هو آية وعلامة عليه ، فكل مخلوق فهو دليل ، وآية على الخالق نفسه، كما قد بسطناه فى مواضع .

ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات ، فإنها قد فطرت على ذلك ، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات ، لم تعلم أن هذه الآية له ، فإن كونها آية له ودلالة عليه ، مثل كون الاسم يدل على المسمى ، فلابد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك ، وعرف أن هذا اسم له ، فكذلك كون هذا دليلاً على هذا يقتضى تصور المدلول عليه ، وتصور أن ذلك

الدليل مستلزم له ، فلابد فى ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول ، فلو لم يكن المدلول
١/٤٩ متصوراً لم يعلم أنه دليل عليه ، / فمعرفة الإضافة متوقفة على تصور المضاف والمضاف إليه ، لكن قد لا يكون الإنسان عالماً بالإضافة ، ولا كونه دليلا ، فإذا تصوره عرف المدلول إذا عرف أنه مستلزم له ، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق ، فلابد أن يكونوا يعرفونه ، حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له .

والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية ، هى التى جاء بها القرآن ، واتفق العقل والشرع ، وتلازم الرأى والسمع .

والمتفلسفة ـ كابن سينا والرازى ومن اتبعهما ـ قالوا : إن طريق إثباته الاستدلال عليه بالممكنات ، وإن الممكن لابد له من واجب ، قالوا : والوجود إما واجب وإما ممكن ، والممكن لابد له من واجب ، فيلزم ثبوت الواجب على التقديرين . وهذه المقالة أحدثها ابن سينا ، وركَّبها من كلام المتكلمين وكلام سلفه ، فإن المتكلمين قسموا الوجود إلى قديم ومحدث ، وقسمه هو إلى واجب وممكن ، وذلك أن الفلك عنده ليس محدثا ، بل زعم أنه ممكن . وهذا التقسيم لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة ، بل حُذَّاقُهُمْ عرفوا أنه خطأ ، وأنه خالف سلفه وجمهور العقلاء وغيرهم ، وقد بينا فى مواضع أن القِدَم ، ووجوب الوجود ، متلازمان عند عامة العقلاء ، الأولين والآخرين ، ولم يعرف على طائفة منهم نزاع فى ذلك ، إلا ما أحدثه هؤلاء ، فإنا نشهد حدوث موجودات كثيرة ، حدثت بعد أن لم تكن ، ونشهد عدمها بعد أن كانت ، وما كان معدوما أو سيكون معدوما لا يكون واجب الوجود ، ولا قديمًا أزليًا .

ثم إن هؤلاء إذا قدر أنهم أثبتوا واجب الوجود ، فليس فى دليلهم أنه مغاير للسموات
١/٥٠ والأفلاك ، وهذا مما بيَّن تهافتهم فيه الغزالى وغيره ، لكن / عمدتهم أن الجسم لا يكون واجبًا ؛ لأنه مركب ، والواجب لا يكون مركبًا ، هذا عمدتهم .

وقد بينا بطلان هذا من وجوه كثيرة ، وما زال النظار يبينون فساد هذا القول كل بحسبه ، كما بين الغزالى فساده بحسبه .

وذلك أن لفظ الواجب صار فيه اشتراك بين عدة معان : فيقال للموجود بنفسه الذى لا يقبل العدم ، فتكون الذات واجبة والصفات واجبة ، ويقال للموجود بنفسه والقائم بنفسه ، فتكون الذات واجبة دون الصفات ، ويقال لمبدع الممكنات ، وهى المخلوقات ، والمبدع لها هو الخالق ، فيكون الواجب هو الذات المتصفة بتلك الصفات ، والذات مجردة عن الصفات لم تخلق ، والصفات مجردة عن الذات لم تخلق ، ولهذا صار من سار

خلفهم ممن يدعى التحقيق والعرفان ، إلى أن جعل الواجب هو الوجود المطلق ، كما قد بسط القول عليه فى مواضع .

والمقصود هنا الكلام أولاً فى أن سعادة العبد فى كمال افتقاره إلى ربه واحتياجه إليه ؛ أى فى أن يشهد ذلك ويعرفه ، ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع ، وإلا فالخلق كلهم محتاجون، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى، كما قال تعالى: ﴿ **كلاَّ إنَّ الإنسان لَيَطْغَىٰ . أن رآه استغنىٰ** ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال: ﴿ **وإذا أنْعَمْنا علَى الإنسان أعْرَضَ ونَأىٰ بجانبه وإذا مسَّهُ الشرُّ فذُو دُعاءٍ عَريض** ﴾ [فصلت : ٥١] ، وفى الآية الأخرى: ﴿ **كان يئُوساً** ﴾ [ الإسراء : ٨٣ ] .

## / فصـــل ١/٥١

والسعادة فى معاملة الخلق : أن تعاملهم لله ، فترجو الله فيهم ولا ترجوهم فى الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم فى الله ، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم ، وتكف عن ظلمهم خوفًا من الله لا منهم ، كما جاء فى الأثر : « ارج الله فى الناس ولا ترج الناس فى الله ، وخف الله فى الناس ولا تخف الناس فى الله » أى : لا تفعل شيئًا من أنواع العبادات والقرب لأجلهم ، لا رجاء مدحهم ولا خوفًا من ذمهم ، بل ارج الله ولا تخفهم فى الله فيما تأتى وما تذر ، بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه . وفى الحديث : « إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله ، أو تَذُمَّهُمْ على ما لم يؤتك الله »[1] فإن اليقين يتضمن اليقين فى القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا ، لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك ، إما ميل إلى ما فى أيديهم من الدنيا ، فيترك القيام فيهم بأمر الله ؛ لما يرجوه منهم . وإما ضعيف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب فى الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ، ورزقك وكفاك مؤنتهم ، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفا منهم ورجاء لهم ؛ وذلك من ضعف اليقين .

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر فى ذلك إلى الله لا لهم، / فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر ، كان ذلك من ضعف يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك ، لكن من حمده الله ١/٥٢

---

(١) البيهقى فى الشعب (٢٠٧) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء ٥/١٠٦، ١٠/٤١، والحديث فيه محمد بن مروان ضعيف ، والسيوطى فى الجامع الصغير (٢٤٩٣) ورمز إليه بالضعف .

ورسوله فهو المحمود ، ومن ذمَّه الله ورسوله فهو المذموم .

ولما قال بعض وفد بنى تَميم : يا محمد ، أعطنى ، فإن حَمْدِى زَيْنٌ وإن ذَمِّى شَيْنٌ . قال رسول الله ﷺ : « ذاك الله عز وجل »[1] .

وكتبت عائشة إلى معاوية ، وروى أنها رفعته إلى النبى ﷺ : « من أرضى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغْنُوا عنه من الله شيئا »[2] هذا لفظ المرفوع ، ولفظ الموقوف : « من أرضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً »[3] هذا لفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه فى الدين، والمرفوع أحق وأصدق، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه ، وكان عبده الصالح ، والله يتولى الصالحين ، وهو كاف عبده ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب** ﴾ [ الطلاق : ٢ ، ٣ ] . فالله يكفيه مُؤْنَةَ الناس بلا رَيْب ، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه ، فقد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه، إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً، كالظالم الذى يعض على يده يقول: ﴿ **يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلا** ﴾ [ الفرقان : ٢٧، ٢٨ ] ، وأما كون حامده ينقلب ذاماً ، فهذا يقع كثيراً، ويحصل فى العاقبة، فإن العاقبة للتقوى ، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم، وهو سبحانه أعلم .

١/٥٣ فالتوحيد ضد الشرك ، فإذا قام العبد بالتوحيد الذى هو حق الله ، فعبده / لا يشرك به شيئاً كان موحداً . ومن توحيد الله وعبادته : التوكل عليه والرجاء له ، والخوف منه ، فهذا يخلص به العبد من الشرك . وإعطاء الناس حقوقهم ، وترك العدوان عليهم ، يخلص به العبد من ظلمهم ، ومن الشرك بهم . وبطاعة ربه واجتناب معصيته ، يخلص العبد من ظلم نفسه ، وقد قال ـ تعالى ـ فى الحديث القدسى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين »[4] . فالنصفان يعود نفعهما إلى العبد ، وكما فى الحديث الذى رواه

---

(١) الترمذى فى التفسير (٣٢٦٧) وقال: « هذا حديث حسن غريب » ، والنسائى فى الكبرى فى التفسير (٢/١١٥١٥) ، وأحمد ٣ / ٤٨٨ .

(٢) الترمذى فى الزهد (٢٤١٤) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء ٨/ ١٨٨ . وقال : « غريب من حديث هشام بهذا اللفظ » ، والسيوطى فى الجامع الصغير (٨٣٩٤) ورمز إليه بالحسن .

(٣) الترمذى فى الزهد (٢٤١٤) .

(٤) مسلم فى الصلاة ( ٣٩٥/ ٣٨، ٤٠) ، والترمذى فى التفسير (٢٩٥٣) وقال: «هذا حديث حسن » ، والنسائى فى الافتتاح (٩٠٩) ، ومالك فى الصلاة ١/ ٨٤ (٣٩)، وأحمد ٢/ ٢٨٥، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

الطبرانى فى الدعاء : « يا عبادى ، إنما هى أربع ، واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى ، فالتى لى : تعبدنى لا تشرك بى شيئا . والتى لك : عملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه . والتى بينى وبينك : فمنك الدعاء وعلىّ الإجابة . والتى بينك وبين خلقى : فأت إليهم ما تحب أن يأتوه إليك »[1] . والله يحب النصفين ، ويحب أن يعبدوه .

وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله وإحسانه ، وهو وسيلة إلى ذلك المحبوب ، وهو إنما يحبه لكونه طريقا إلى عبادته ، والعبد يطلب ما يحتاج أولا ، وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة وإلى الهداية إلى الصراط المستقيم ، وبذلك يصل إلى العبادة . فهو يطلب ما يحتاج إليه أولا ليتوسل به إلى محبوب الرب، الذى فيه سعادته . وكذلك قوله : « عملك أجزيك به أحوج ما تكون إليه » ، فإنه يحب الثواب الذى هو جزاء العمل، فالعبد إنما يعمل لنفسه، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، ثم إذا طلب العبادة فإنما يطلبها من حيث هى نافعة له ، محصلة لسعادته ، محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط إلا ما فيه حظ له، وإن كان الرب يحب ذلك فهو يطلبه من حيث هو ملائم له، فمن عبد الله لا يشرك به شيئًا أحبه وأثابه ، فيحصل / للعبد ما يحبه ١/٥٤
من النعم تبعًا لمحبوب الرب ، وهذا كالبائع والمشترى، البائع يريد من المشترى أولا الثمن، ومن لوازم ذلك : إرادة تسليم المبيع ، والمشترى يريد السلعة ، ومن لوازم ذلك : إرادة إعطاء الثمن .

فالرب يحب أن يحب، ومن لوازم ذلك : أن يحب من لا تحصل العبادة إلا به . والعبد يحب ما يحتاج إليه وينتفع به، ومن لوازم ذلك : محبته لعبادة الله ، فمن عبد الله وأحسن إلى الناس، فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله ، فى إخلاص الدين له. ومن طلب من العباد العوض ، ثناء أو دعاء أو غير ذلك ، لم يكن محسنًا إليهم لله . ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم فى الله كان محسنًا إلى الخلق وإلى نفسه ، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم ، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم ، حيث خاف غير الله ورجاه ؛ لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه بكل وجه، إما بمداهنتهم ومراءاتهم، وإما بمقابلتهم بشىء أعظم من شرهم أو مثله ، وإذا رجاهم لم يقم فيهم بحق الله ، وهو إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم،

---

(١) الطبرانى فى الدعاء ص ٧٩٢(١٦) وأبو يعلى (٢٧٥٧) ، والبزار فى كشف الأستار فى الإيمان (١٩)، وذكره الهيثمى فى المجمع ١/ ٥٦ وقال : « هذا لفظ أبى يعلى ورواه البزار وفى إسناده صالح المرى وهو ضعيف ، وتدليس الحسن أيضًا » ، وأورده الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية (٣٢٨٦) وعزاه إلى أبى يعلى .

فإن طبع النفس الظلم لمن لا يظلمها فكيف بمن يظلمها ؟ فتجد هذا الضرب كثير الخوف من الخلق، كثير الظلم إذا قدر ، مهين ذليل إذا قهر ، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك ، وهذا مما يوقع الفتن بين الناس .

وكذلك إذا رجاهم فهم لا يعطونه ما يرجوه منهم ، فلابد أن يبغضهم فيظلمهم إذا لم يكن خائفا من الله عز وجل ، وهذا موجود كثيراً فى الناس، تجدهم يخاف بعضهم بعضًا ويرجو بعضهم بعضًا ، وكل من هؤلاء يتظلم من الآخر ، ويطلب ظلمه، فهم ظالمون بعضهم لبعض ، ظالمون فى حق الله حيث خافوا غير من رجوا غيره ، ظالمون لأنفسهم ، فإن هذا من الذنوب التى تعذب النفس بها وعليها، وهو يجر إلى فعل المعاصى المختصة ، كالشرك والزنا ، فإن الإنسان إذا لم يخف / من الله تبع هواه، ولاسيما إذا كان طالبًا ما ١/٥٥
لم يحصل له ؛ فإن نفسه تبقى طالبه لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه ، فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور ، وذكر مجربات النفس والهزل واللعب، ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك ، ولا يستغنى القلب إلا بعبادة الله ـ تعالى .

فإن الإنسان خلق محتاجًا إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ونفسه مريدة دائمًا، ولابد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به، وليس ذلك إلا لله وحده، فلا تطمئن القلوب إلا به ، ولا تسكن النفوس إلا إليه ، و ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، فكل مألوه سواه يحصل به الفساد ، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له.

فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الدين ، عبدت غيره من الآلهة التى يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم ، فأشركت بالله بعبادة غيره ، واستعانته ، فتعبد غيره وتستعين به، لجهلها بسعادتها التى تنالها بعبادة خالقها والاستعانة به ، فبالعبادة له تستغنى عن معبود آخر، وبالاستعانة به تستغنى عن الاستعانة بالخلق ، وإذا لم يكن العبد كذلك، كان مذنبًا محتاجًا، وإنما غناه فى طاعة ربه، وهذا حال الإنسان؛ فإنه فقير محتاج ، وهو مع ذلك مذنب خطاء، فلابد له من ربه، فإنه الذى يسدى مغافرَه، ولابد له من الاستغفار من ذنوبه، قال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾ [محمد: ١٩] ، فبالتوحيد يقوى العبد ويستغنى، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، وبالاستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه، ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٣] ، فلا يزول فقر

العبد وفاقته / إلا بالتوحيد ؛ فإنه لابد له منه ، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيرًا محتاجًا ١/٥٦
معذبًا فى طلب ما لم يحصل له، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به، وإذا حصل مع التوحيد الاستغفار ، حصل له غناه وسعادته ، وزال عنه ما يعذبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والعبد مفتقر دائما إلى التوكل على الله والاستعانة به، كما هو مفتقر إلى عبادته، فلابد أن يشهد دائمًا فقره إلى الله ، وحاجته فى أن يكون معبودًا له ، وأن يكون معينًا له، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥ ] أى يخوفكم بأوليائه . هذا هو الصواب الذى عليه الجمهور ، كابن عباس وغيره وأهل اللغة كالفراء وغيره . قال ابن الأنبارى : والذى نختاره فى الآية : يخوفكم أولياءه. تقول العرب : أعطيت الأموال : أى أعطيت القوم الأموال ، فيحذفون المفعول الأول .

قلت: وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أولياءه تخويفًا مطلقًا ، ليس له فى تخويف ناس بناس ضرورة ، فحذف الأول لأنه ليس مقصودًا .

وقال بعض المفسرين: يخوف أولياءه المنافقين، والأول أظهر؛ لأنها نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ، فهى إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس ، وقد قال : ﴿ **يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فلا تخافُوهُم** ﴾ [آل عمران: ١٧٥] الضمير عائد إلى أولياء الشيطان، الذين قال فيهم: ﴿ **فاخْشَوْهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قبلها، والذى قال الثانى فسرها من جهة المعنى، وهو أن الشيطان إنما يخوف أولياءه ؛ لأن سلطانه عليهم ، فهو يدخل عليهم المخاوف دائما، وإن كانوا ذوى عَدَد وعُدَد، وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار، أو أنهم أرادوا المفعولَ الأولَ، أى يخوف / المنافقين أولياءه، وهو يخوف الكفار ، ١/٥٧
كما يخوف المنافقين ، ولو أريد أنه يجعل أولياءه خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ، وهو قوله : ﴿ **فلا تخافُوهُم** ﴾ .

وأيضًا ، فإنه يعد أولياءه وَيُمَنِّيهِمْ ، ولكن الكفار يلقى الله فى قلوبهم الرعب من المؤمنين ، والشيطان لا يختار ذلك ، قال تعالى : ﴿ **لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [الحشر : ١٣] ، وقال : ﴿ **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ [الأنفال : ١٢] ، ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام وهم يوالون العدو فصاروا بذلك منافقين،وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ** ﴾ [ التوبة : ٥٦ ] ، وقال : ﴿ **فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ** ﴾ الآية [ الأحزاب : ١٩ ] . فكلا القولين صحيح من حيث المعنى ، لكن لفظ أوليائه هم الذين

يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه السياق ، وإذا جعلهم مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم .

فدلت الآية على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناسا خائفين منهم .

ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخاف الناس ، كما قال : ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ [ المائدة : ٤٤ ] ، فخوف الله أمر به ، وخوف أولياء الشيطان نَهَى عنه ، قال تعالى: ﴿ **لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي** ﴾ [البقرة: ١٥٠]، فنهى عن خَشْيَة الظالم وأمر بخشيته، وقال: ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ [ الأحزاب : ٣٩ ] ، وقال: ﴿ **فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [ النحل : ٥١ ] .

١/٥٨ وبعض الناس يقول : يا رب ، إنى أخافك وأخاف من لا يخافك ، فهذا / كلام ساقط لا يجوز ، بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدًا ، فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ، فالخوف منه قد نهى الله عنه، وإذا قيل : قد يؤذينى، قيل : إنما يؤذيك بتسليط الله له ، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه، فالأمر لله، وإنما يسلط على العبد بذنوبه، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر، ولم يسلطه عليك، فإنه قال: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق:٣]، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه ، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك، كما قال: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال:٣٣] .

وفى الآثار : « يقول الله : أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدى، فمن أطاعنى جعلت قلوب الملوك عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إلىَّ وأطيعون أعطفهم عليكم» (١) .

ولما سلط الله العدو على الصحابة يوم أحد قال : ﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ** ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٥]،وقال : ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾ الآيات [آل عمران: ١٤٦] والأكثرون يقرؤون : قاتل ـ والربيون الكثير عند جماهير السلف والخلف: هم الجماعات الكثيرة، قال ابن مسعود وابن عباس ـ فى رواية عنه ـ والفراء: ألوف كثيرة.

---

(١) ذكره الهيثمى فى المجمع ٥/٢٥٢ عن أبى الدرداء، وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن راشد وهو متروك»، والديلمى فى الفردوس (٨٠٣٢) عن أنس بن مالك رضى الله عنه بلفظ مختلف.

وقال ابن عباس فى أخرى ومجاهد وقتادة : جماعات كثيرة ، وقرئ بالحركات الثلاث فى الراء ، فعلى هذه القراءة فالربيون الذين قاتلوا معه : الذين ما وهنوا وما ضعفوا. وأما على قراءة أبى عمرو وغيره ففيها وجهان :

أحدهما: يوافق الأول ، أى الربيون يقتلون فما وهنوا ، أى ما وهن من بقى/ منهم، ١/٥٩
لقتل كثير منهم، أى ما ضعفوا لذلك ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم ، بل قاموا بأمر الله فى القتال حتى أدَالُهم الله عليهم وصارت كلمة الله هى العليا .

والثانى: أن النبى ﷺ قتل معه ربيون كثير فما وهن من بقى منهم لقتل النبى ﷺ. وهذا يناسب صرخ الشيطان أن محمداً قد قتل ، لكن هذا لا يناسب لفظ الآية، فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة ما وهنوا ، ولو أريد أن النبى قتل ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج إلى تكثيرهم بل تقليلهم هو المناسب لها ، فإذا كثروا لم يكن فى مدحهم بذلك عبرة .

وأيضا، لم يكن فيه حجة على الصحابة ، فإنهم يوم أحد قليلون والعدو أضعافهم، فيقولون ولم يهنوا ؛ لأنهم ألوف ونحن قليلون .

وأيضًا ، فقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] يقتضى كثرة ذلك ، وهذا لا يعرف أن أنبياء كثيرون قتلوا فى الجهاد.

وأيضا : فيقتضى أن المقتولين مع كل واحد منهم ربيون كثير، وهذا لم يوجد ، فإن من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يقاتلون ، وموسى وأنبياء بنى إسرائيل لم يقتلوا فى الغزو، بل ولا يعرف نبى قتل فى جهاد، فكيف يكون هذا كثيرًا ويكون جيشه كثيرًا؟!

والله ـ سبحانه ـ أنكر على من ينقلب ، سواء كان النبى مقتولا أو ميتا ، فلم يذمهم إذا مات أو قتل على الخوف بل على الانقلاب على الأعقاب، ولهذا تلاها الصديق رضى الله عنه ـ بعد موته ﷺ فكأن لم يسمعوها قبل ذلك .

ثم ذكر بعدها معنى آخر : وهو أن من كان قبلكم كانوا يقاتلون فيقتل منهم/ خلق ١/٦٠
كثير وهم لا يهنون ، فيكون ذكر الكثرة مناسبا؛ لأن من قتل مع الأنبياءكثير، وقتل الكثير من الجنس يقتضى الوهن، فما وهنوا وإن كانوا كثيرين، ولو وهنوا دل على ضعف إيمانهم، ولم يقل هنا: ولم ينقلبوا على أعقابهم ، فلو كان المراد أن نبيهم قتل لقال : فانقلبوا على أعقابهم؛ لأنه هو الذى أنكره إذا مات النبى أو قتل، فأنكر سبحانه شيئين: الارتداد إذا مات أو قتل، والوهن والضعف والاستكانة لما أصابهم فى سبيل الله من استيلاء العدو؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. . . إلخ. ولم يقل: فما وهنوا لقتل النبى ، ولو قتل وهم أحياء لذكر ما يناسب ذلك، ولم يقل: ﴿فَمَا

وهنُوا لما أصابهُمْ في سبيل الله ﴾، ومعلوم أنّ ما يصيب فى سبيل الله فى عامة الغزوات لا يكون قتل نبى .

وأيضًا: فكون النبى قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير، لا يستلزم أن يكون النبى معهم فى الغزاة، بل كل من اتبع النبى وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كل من قتل على دينه فقد قتل معه، وهذا الذى فهم الصحابة، فإن أعظم قتالهم كان بعد وفاته ﷺ ، حتى فتحوا البلاد شامًا، ومصرًا، وعراقًا، ويمنًا وعربًا ، وعجمًا، وروماً، ومغربًا، ومشرقًا، وحينئذ فظهر كثرة من قتل معه، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون، ويكون فى هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة ، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبى ﷺ على دينه، وإن كان قد مات، والصحابة الذين يغزون فى السرايا، والنبى ليس معهم ، كانوا معه يقاتلون ، وهم داخلون فى قوله : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٩] ، وفى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا / وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ الآية [الأنفال : ٧٥]. ليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون مشاهدًا للمطاع ناظرًا إليه. ١/٦١

وقد قيل فى : ﴿ربيون ﴾ هنا : إنهم العلماء، فلما جعل هؤلاء هذا كلفظ الربانى، وعن ابن زيد هم الأتباع كأنه جعلهم المربوبين . والأول أصح من وجوه:

**أحدها** : أن الربانيين عين الأحبار ، وهم الذين يربون الناس ، وهم أئمتهم فى دينهم، ولا يكون هؤلاء إلا قليلاً .

**الثانى** : أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم ، وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين ، وإن كانوا قد أعطوا علما ومعهم الخوف من الله عز وجل.

**الثالث** : أن استعمال لفظ الربانى فى هذا ليس معروفا فى اللغة .

**الرابع** : أن استعمال لفظ الربى فى هذا ليس معروفا فى اللغة ، بل المعروف فيها هو الأول، والذين قالوه قالوا: هو نسبة للرب بلا نون والقراءة المشهور (ربى) بالكسر، وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء ، وقد قرئ بالضم ، فعلم أنها لغات .

**الخامس**: أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد ، سواء كان من الربانيين أو لم يكن .

**السادس** : أنه لا مناسبة فى تخصيص هؤلاء بالذكر، وإنما المناسب ذكرهم فى مثل قوله: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾ الآية [المائدة: ٦٣]. وفى قوله: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فهناك ذكرهم به مناسبا.

**السابع**: قيل: إن الربانى منسوب إلى الرب، فزيادة الألف والنون كاللحيانى، وقيل: إلى تربيته الناس، وقيل: إلى ربان السفينة، وهذا أصح، فإن/ الأصل عدم الزيادة فى ١/٦٢

النسبة؛ لأنهم منسوبون إلى التربية ، وهذه تختص بهم، وأما نسبتهم إلى الرب فلا اختصاص لهم بذلك ، بل كل عبد له فهو منسوب إليه، إما نسبة عموم أو خصوص ولم يسم الله أولياءه المتقين ربانيين، ولا سمى به رسله وأنبياءه، فإن الربانى من يرب الناس، كما يرب الربانى السفينة ، ولهذا كان الربانيون يذمون تارة ، ويمدحون أخرى ، ولو كانوا منسوبين إلى الرب لم يذموا قط . وهذا هو **الوجه الثامن** :

أنها إن جعلت مدحًا فقد ذموا فى مواضع ، وإن لم تكن مدحا لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح، وإذا كان منسوبًا إلى ربانى السفينة بطل قول من يجعل الربانى منسوبا إلى الرب، فنسبة الربيون إلى الرب أولى بالبطلان .

**التاسع** : أنه إذا قدر أنهم منسوبون إلى الرب ، فلا تدل النسبة على أنهم علماء. نعم تدل على إيمان وعبادة وتأله، وهذا يعم جميع المؤمنين ، فكل من عبد الله وحده لا يشرك به شيئا فهو متأله عارف بالله ، والصحابة كلهم كذلك ، ولم يسموا ربانيين ولا ربيين، وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس : اليوم مات ربانى هذه الأمة، وذلك لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم ، والخلفاء أفضل منهم ، ولم يسموا ربانيين ، وإن كانوا هم الربانيين . وقال إبراهيم : كان علقمة من الربانيين ؛ ولهذا قال مجاهد : هم الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره ، فهم أهل الأمر والنهى. والأحبار يدخل فيه من أخبر بالعلم ورواه عن غيره وحدث به وإن لم يأمر ، أو ينه ، وذلك هو المنقول عن السلف فى الربانى، نقل عن علىّ قال: «هم الذين يغذون الناس بالحكمة / ويربونهم عليها» ، وعن ١/٦٣
ابن عباس قال: « هم الفقهاء المعلمون »(١) .

قلت : أهل الأمر والنهى هم الفقهاء المعلمون. وقال قتادة وعطاء : هم الفقهاء العلماء الحكماء. قال ابن قتيبة : واحدهم ربانى، وهم العلماء المعلمون. قال أبو عبيد: أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية ، وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين.

قلت : اللفظة عربية منسوبة إلى ربان السفينة الذى ينزلها ويقوم لمصلحتها ، ولكن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون ؛ لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل.

---

(١) انظر : ابن جرير فى التفسير ٤ / ٧٨ ، ٧٩ .

١/٦٤ / وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله :

## فصـل

قال الله تعالى : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [ الفاتحة : ٦ ، ٧ ] .

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال :«اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون»(١) .

وكتاب الله يدل على ذلك فى مواضع، مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله: ﴿فَبَاءُوا (٢) بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾ [البقرة : ٩٠] ، وقوله : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢] ، وقال النصارى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٧٧] ، وقال : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [ التوبة : ٣٠ ، ٣١ ] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ /أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ١/٦٥ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] .

---

(١) الترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٥٤) ، وأحمد ٤/ ٣٧٨، وذكره الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣١٤ وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ».

(٢) فى المطبوعة : « وباؤا » ، والصواب ما أثبتناه .

ولما أمرنا الله ـ سبحانه ـ أن نسأله فى كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين ، كان ذلك مما يبين أن العبد يُخاف عليه أن ينحرف إلى هذين الطريقين ، وقد وقع ذلك كما أخبر به النبى ﷺ حيث قال : « لتسلكن سَنَنَ من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ [1] ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه » قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال : « فمن ؟ » [2] وهو حديث صحيح .

وكان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى، كما يرى فى أحوال منحرفة أهل العلم من تحريف الكلم عن مواضعه ، وقسوة القلوب، والبخل بالعلم ، والكبر وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم ، وغير ذلك . وكما يرى فى منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو فى الأنبياء والصالحين، والابتداع فى العبادات ، من الرهبانية والصور والأصوات.

ولهذا قال النبى ﷺ: «لا تُطْرُونى كما أطْرَتْ النصارى / عيسى ابن مريم، فإنما أنا عَبْدٌ ١/٦٦
فقولوا : عبد الله ورسوله » [3] ، ولهذا حقق الله له نعت العبودية فى أرفع مقاماته حيث قال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء : ١] ، وقال تعالى : ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩] .ولهذا يشرع فى التشهد وفى سائر الخطب المشروعة،كخطب الجمع والأعياد ، وخطب الحاجات عند النكاح وغيره، أن نقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وكان رسول الله ﷺ يحقق عبوديته؛ لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى فى المسيح، من دعوى الألوهية ، حتى قال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال: «أجعلتنى لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده» [4] ، وقال أيضًا لأصحابه : «لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد» [5] ، وقال : « لا تتخذوا قبرى عيدًا

---

(١) حذو النقذة بالقذة : أى كما تُقَدَّر كُلُّ واحدة منهما على قدر صاحبتها وتُقْطَع . يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان . انظر : النهاية فى غريب الحديث ٤/ ٢٨ .

(٢) البخارى فى الأنبياء (٣٤٥٦) ، وأحمد ٤ / ١٢٥ بلفظ مغاير .

(٣) البخارى فى الأنبياء (٣٤٤٥) ، والدارمى فى الرقائق ٢ / ٣٢٠ ، وأحمد ١/ ٢٣، ٢٤ كلهم عن عمر رضى الله عنه .

(٤) أحمد ١ / ٢٢٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧ بلفظ « عدلاً » بدلا من « ندًا » ، قال أحمد شاكر (١٩٦٤) : «إسناده صحيح».

(٥) ابن ماجه فى الكفارات (٢١١٨) ، والدارمى فى الاستئذان ٢/ ٢٩٥، وأحمد ٥/ ٣٩٣.

وصلوا علىَ حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » (١) ، وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثنًا يُعبَد ، اشتد غَضَبُ الله على قوم اتَّخَذُوا قبور أنبيائهم مساجد» (٢) ، وقال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك» (٣) .

والغلو فى الأمة وقع فى طائفتين : طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون فى الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية ، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك فى الأنبياء والصالحين ، فمن توهم فى نبينا أو غيره من الأنبياء شيئًا من الألوهية والربوبية ، فهو من جنس النصارى، وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم ، قال تعالى فى خطابه لبنى إسرائيل: ﴿وآمَنتُم بِرُسُلِي وعَزَّرْتُمُوهُمْ وأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ولأُدْخِلَنَّكُمْ / جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢] ، والتعزير : النصر والتوقير ١/٦٧
والتأييد . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذِيرًا . لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ورَسُولِهِ وتُعَزِّرُوهُ وتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨، ٩ ]، فهذا فى حق الرسول ، ثم قال فى حق الله تعالى : ﴿وتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وأَصِيلاً ﴾ [الفتح: ٩] ، وقال تعالى : ﴿ورَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧]، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران : ٣١، ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ ومَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ وإِخْوَانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وعَشِيرَتُكُمْ وأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ورَسُولِهِ وجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [ التوبة : ٢٤ ] .

---

(١) أبو داود فى المناسك ( الحج ) (٢٠٤٢) ، وأحمد ٢ / ٣٦٧ عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) مالك فى قصر الصلاة فى السفر ١/١٧٢ (٨٥) ، وأحمد ٢/٢٤٦، وقال أحمد شاكر (٧٣٥٢) :«إسناده صحيح».

(٣) مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢/ ٢٣).

وذكر طاعة الرسول فى أكثر من ثلاثين موضعا من القرآن وقال ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا استَجيبُوا للَّه وللرَّسُول إذا دعاكُمْ لما يُحْييكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿فلا وربِّكَ لا يُؤْمنُونَ حتَّىٰ يُحكِّمُوكَ فيما شجرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجدُوا في أنفُسهمْ حرجًا مِّمَّا قَضيْتَ ويُسلِّمُوا تَسْليمًا﴾ [ النساء: ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿فليَحذَرِ الَّذين يُخالفُونَ عن أمْره أن تُصيبَهُمْ فتْنةٌ أوْ يُصيبَهُمْ عذابٌ أليمٌ﴾ [النور: ٦٣ ] ، وقال تعالى : ﴿ إنَّما كانَ قولَ الْمُؤْمنين إذا دُعُوا إلَى اللَّه ورَسُوله ليحكُمَ بَيْنَهُمْ أن يَقُولُوا سمعْنا وأطَعْنا / وأُولَئك هُمُ الْمُفلحُون . ومن يطع اللَّهَ ١/٦٨
ورَسُولَهُ ويَخْشَ اللَّهَ ويتَّقْه فأُولَئك هُمُ الْفائزُون ﴾ [ النور : ٥١ ، ٥٢ ] ، فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده كما قال ﴿ فإيَايَ فارْهَبُون ﴾ [ النحل: ٥١]، وقال :﴿ وإيَّايَ[1] فاتَّقُون ﴾ [ البقرة : ٤١] ، وقال : ﴿ فلا تخْشوُا النَّاسَ واخْشَوْن﴾ [المائدة : ٤٤] ، وقال : ﴿ إنَّ الَّذين يُبايعُونَكَ إنما يُبايعُونَ اللَّهَ يدُ اللَّه فوْقَ أيْديهمْ ﴾ [الفتح: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿ لا تَجْعلُوا دُعاءَ الرَّسُول بَيْنَكُمْ كدُعاء بَعْضكُم بَعْضًا ﴾ [ النور: ٦٣]، وقال تعالى : ﴿النَّبيُّ أوْلَىٰ بالْمُؤْمنينَ منْ أنفُسهمْ وأزْواجُهُ أُمهاتُهُم﴾ [الاحزاب: ٦] .

وقال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[2] . وقال له عمر : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل أحد إلا من نفسى، فقال: « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » فقال: فأنت أحب إلى من نفسى قال : « الآن يا عمر » [3] .

فقد بين الله فى كتابه حقوق الرسول من الطاعة له ، ومحبته ، وتعزيره ، وتوقيره ، ونصره ، وتحكيمه ، والرضا بحكمه ، والتسليم له ، واتباعه والصلاة والتسليم عليه ، وتقديمه على النفس والأهل والمال ، ورد ما يتنازع فيه إليه وغير ذلك من الحقوق .

وأخبر أن طاعتَه طاعتُه فقال: ﴿ مَن يُطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّه﴾ [النساء: ٨٠]، ومبايعتَه مبايعتُه فقال : ﴿ إنَّ الَّذين يُبايعُونَكَ إنَّما يُبايعُونَ اللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠] ، وقرن بين اسمه واسمه فى المحبة فقال: ﴿واللَّهُ ورَسُولُهُ أحقُّ أن يُرضُوه﴾ [التوبة: ٢٤]، وفى الأذى فقال: ﴿إنَّ الَّذين يُؤْذُونَ اللَّهَ ورَسُوله﴾ [الأحزاب: ٥٧] ، وفى الطاعة والمعصية فقال: ﴿ ومَن يُطعِ اللَّهَ ورَسُولَه ﴾ [النساء : ١٣] ، ﴿ومَن يعْص اللَّهَ ورَسُوله ﴾ [النساء: ١٤]،وفى الرضا فقال : ﴿واللَّهُ ورَسُولُهُ أحقُّ أن يُرْضُوه﴾ [التوبة : ٦٢] . فهذا ونحوه هو الذى يستحقه رسول الله

---

(١) فى المطبوعة : « فإياى » ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) البخارى فى الإيمان (١٥) ، ومسلم فى الإيمان (٤٤/ ٧٠) ، والنسائى فى الإيمان وشرائعه (٥٠١٣) ، وابن ماجه فى المقدمة (٦٧) ، وأحمد ٣/ ١٧٧، ٢٧٥ ، كلهم عن أنس رضى الله عنه .

(٣) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٣٢).

بأبى هو وأمى .

١/٦٩ / فأما العبادة والاستعانة فلله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا به شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] ، وقد جمع بينهما فى مواضع، كقوله : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان : ٥٨] ، وقوله : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

وكذلك التوكل كما قال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [ إبراهيم : ١٢] ، وقال : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم (١) مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر :٣٨] ، وقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] .

والدعاء لله وحده، سواء كان دعاء العبادة، أو دعاء المسألة والاستعانة، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨ ـ ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] ، وقال : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: ٥٢] .

وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] ،

١/٧٠ روى عن ابن مسعود : أن قومًا كانوا يدعون الملائكة ، / والمسيح ، وعُزَيرًا ، فقال الله: هؤلاء الذين تدعونهم يخافون الله ، ويرجونه ، ويتقربون إليه كما تخافونه أنتم ، وترجونه، وتتقربون إليه . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [ الإسراء : ٦٧] ، وقال: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾؟ [النمل: ٦٢] ، وقال ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان : ٦٨] .

---

(١) فى المطبوعة : « أرأيتم » ، والصواب ما أثبتناه .

وتوحيد الله ، وإخلاص الدين له فى عبادته واستعانته ، فى القرآن كثير جدًا، بل هو قلب الإيمان ، وأول الإسلام وآخره ، كما قال النبى ﷺ : « أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله » (١) ، وقال: « إنى لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحَدٌ إلا وجد رُوحهُ لها روحا» (٢) ، وقال: « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة» (٣) ، وهو قلب الدين والإيمان، وسائر الأعمال كالجوارح له. وقول النبى ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلي الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » (٤) ، فبين بهذا أن النية عمل القلب وهى أصل العمل. وإخلاص الدين لله ، وعبادة الله وحده ، ومتابعة الرسول فيما جاء به ، هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله .

ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصرى ما يقوله فى قصائده فى مدح الرسول من الاستغاثة به ، مثل قوله : بك أستغيث وأستعين وأستنجد، ونحو ذلك.

/ وكذلك ما يفعله كثير من الناس ، من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم ، ١/٧١
والاستعانة بهم أحياء وأمواتا ، فإنى أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة ، وبينت للناس التوحيد ، ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة .

وهو دين الإسلام العام ، الذى بعث الله به جميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٤٥] ، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ [المؤمنون : ٥١، ٥٢] ، وقال: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**

---

(١) البخارى فى الإيمان (٢٥) ، ومسلم فى الإيمان ( ٢٢/ ٣٦) ، كلاهما عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٢) ابن ماجه فى الأدب (٣٧٩٥) ، وأبو يعلى (٦٤١) ، كلاهما عن طلحة رضى الله عنه واللفظ لأبى يعلى ، وذكره الهيثمى فى المجمع ٢/ ٣٢٧ وقال : «رجاله رجال الصحيح ».

(٣) أحمد ٥/ ٢٣٣ ، ٢٤٧ وصححه الحاكم فى المستدرك ١/ ٣٥١ ووافقه الذهبى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه.

(٤) البخارى فى بدء الوحى (١) ، ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧/ ١٥٥) ، وأبو داود فى الطلاق (٢٢٠١)، والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٤٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح»، والنسائى فى الطهارة (٧٥) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٢٧) ، وأحمد ١ / ٢٥ ، كلهم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

والَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْك وما وَصَّيْنَا به إِبْراهيمَ ومُوسىٰ وعيسَىٰ أَنْ أَقيمُوا الدّينَ ولا تَتفرَّقُوا فيه كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِين مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْه ﴾ [الشورى: ١٣] ، وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل: « يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على عباده؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم» (١) ، وقال لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» (٢) .

ويدخل فى العبادة الخشية ، والإنابة ، والإسلام ، والتوبة ، كما قال تعالى : ﴿الَّذين يُبلِّغُون رِسالات اللَّه ويَخْشَوْنَهُ ولا يخْشَوْنَ أحدًا إلاَّ اللَّه﴾ [الأحزاب: ٣٩] ، وقال: ﴿فَلا تخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنَ﴾ [ المائدة: ٤٤] ، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [ التوبة : ١٨ ] ، وقال الخليل : ﴿ولا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ به إلاَّ أن يَشاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفلا/ تَتذكَّرُون . وَكَيْفَ ١/٧٢
أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم باللَّه ما لَمْ يُنَزِّلْ به عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فأَيُّ الْفَرِيقَيْن أَحقُّ بالأَمن إن كُنتُمْ تَعْلَمُون . الَّذين آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئكَ لَهُمُ الأَمْنُ وهُم مُهْتَدُون﴾ [الأنعام: ٨٠ ـ٨٢] ، وقال : ﴿ أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [ التوبة : ١٣ ] ، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [ البقرة : ٤١ ] ، وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْه ﴾ [ النور : ٥٢ ] ، وقال نوح : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [ نوح : ٣ ] .

فجعل العبادة والتقوى لله ، وجعل له أن يطاع ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [ النساء: ٦٤ ] ، وكذلكَ قَالت الرسُل مثْل نُوحٍ ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وغيرهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء : ١٠٨، ١٢٦، ١٤٤، ١٦٣، ١٧٩] ، فجعلوا التقوى لله ، وجعلوا لهم أن يطاعوا . وكذلك فى مواضع كثيرة جدًا من القرآن : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء : ١٣١] . وكذلك . . . (٣) .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢٢ .

(٢) الترمذى فى صفة القيامة ( ٢٥١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح » ، وأحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

(٣) بياض فى الأصل .

وقال: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] ، وقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر: ٥٤] ، وقال عن إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] ، وقالت بلقيس : ﴿ [ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ][1] وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] ، وقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النور: ٣١] ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١] ، وقال: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة : ٥٤] ، ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]. والاستغفار: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠] ، / ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣] ، والاسترزاق ١/٧٣
والاستنصار، كما فى صلاة الاستسقاء ، والقنوت على الأعداء، قال: ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ [العنكبوت : ١٧] ، وقال: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، والاستغاثة كما قال : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٩]، والاستجارة كما قال : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ[2] ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩] ، والاستعاذة كما قال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧، ٩٨ ] ، وقال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الآية [النحل: ٩٨] ، وتفويض الأمر كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] .

وفى الحديث المتفق عليه فى الدعاء الذى علمه النبى ﷺ أن يقال عند المنام: «اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك »[3] .

---

(١) ما بين المعقوفين سقط من المطبوعة .

(٢) فى المطبوعة : « أفلا تتقون » ، والصواب ما أثبتناه .

(٣) البخارى فى الدعوات ( ٦٣١١، ٦٣١٣، ٦٣١٥) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧١٠/ ٥٦) ، وأبو داود فى الأدب (٥٠٤٦)، وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٧٦) ، والدارمى فى الاستئذان ٢/ ٢٩٠، وأحمد ٤/ ٢٨٥، ٢٩٠، كلهم عن البراء بن عازب رضى الله عنه .

وقال : ﴿وأَنذِرْ به الَّذين يَخافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِه وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] ، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِه مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ [السجدة :٤]، فالولى الذى يتولى أمرك كله، والشفيع الذى يكون شافعًا فيه أى عونا ، فليس للعبد دون الله من ولى يستقل ولا ظهير معين وقال : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِه﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِه﴾ [فاطر: ٢] ، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن / دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ . قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] ، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] ، وقال: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦] .

فالعبادة والاستعانة وما يدخل فى ذلك من الدعاء ، والاستغاثة ، والخشية ، والرجاء، والإنابة ، والتوكل ، والتوبة ، والاستغفار : كل هذا لله وحده لا شريك له، فالعبادة متعلقة بألوهيته ، والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره ، لا ملك ولا نبي ولا غيره ، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله وأن تجعل له ندا وهو خالقك ، والشرك أن تجعل لغيره شركا أى نصيبا فى عبادتك ، وتوكلك ، واستعانتك، كما قال من قال : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وكما قال : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾ ؟ [الزمر: ٤٣] ، وكما قال : ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِه مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ [السجدة : ٤] .

وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة ، وكذلك أجزاؤها التى هى عبادة بنفسها من السجود، والركوع ، والتسبيح ، والدعاء ، والقراءة ، والقيام، لا يصلح إلا لله وحده.

١/٧٥ ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده، لا لشمس ، ولا لقمر / ولا لملك، ولا لنبى، ولا صالح ، ولا لقبر نبى ولا صالح ، هذا فى جميع ملل الأنبياء، وقد

ذكر ذلك فى شريعتنا حتى نهى أن يتنفل على وجه التحية والإكرام للمخلوقات ، ولهذا نهى النبى ﷺ معاذًا أن يسجد له. وقال: «لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها »(١) . ونهى عن الانحناء فى التحية (٢) ، ونهاهم أن يقوموا خلفه فى الصلاة وهو قاعد (٣) .

وكذلك الزكاة العامة من الصدقات كلها والخاصة، لا يتصدق إلا لله، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ . إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ**﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] وقال: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ** ﴾ [الإنسان: ٩] ، وقال : ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [ البقرة : ٢٦٥] ، وقال: ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** ﴾ [الروم: ٣٩] ، فلا يجوز فعل ذلك على طريق الدين لا للملك ولا لشمس ولا لقمر ؛ ولا لنبى ؛ ولا لصالح ؛ كما يفعل بعض السؤال والمعظمين كرامة لفلان؛ وفلان؛ يقسمون بأشياء : إما من الأنبياء وإما من الصحابة وإما من الصالحين ، كما يقال : بكر وعلى ونور الدين أرسلان والشيخ عدى والشيخ جاليد .

وكذلك الحج ،لا يحج إلا إلى بيت الله ،فلا يطاف إلا به ،ولا يحلق الرأس إلا به ، ولا يوقف إلا بفنائه ، لا يفعل ذلك بنبى، ولا صالح ، ولا يقبر نبى ولا صالح ، ولا بوثن .

وكذلك الصيام ، لا يصام عبادة إلا لله ، فلا يصام لأجل الكواكب والشمس والقمر، ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك .

/ وهذا كله تفصيل الشهادتين ، اللتين هما أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله ١/٧٦
وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله ، والإله من يستحق أن يألهه العباد ، ويدخل فيه حبه وخوفه ، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله ، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول .

ولما كان أصل الدين الشهادتين ، كانت هذه الأمة الشهداء ولها وصف الشهادة والقسيسون لهم العبادة بلا شهادة ؛ ولهذا قالوا : ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا**

(١) الترمذى فى الرضاع (١١٥٩) وقال : « حديث أبى هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه »، وابن ماجه فى النكاح (١٨٥٢) ، وأحمد ٦/ ٧٦، كلاهما عن عائشة رضى الله عنها ، وضعفه الألبانى.

(٢) الترمذى فى الاستئذان (٢٧٢٨) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٠٢) ، وأحمد ٣/ ١٩٨، كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) البخارى فى الأذان (٦٨٨)، ومسلم فى الصلاة (٤١٣/ ٨٤) ، وأبو داود فى الصلاة (٦٠٢)، والترمذى فى الصلاة (٣٦١) ، والنسائى فى الإمامة (٨٣٢) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٢٤٠) ، ومالك فى صلاة الجماعة ١/ ١٣٥(١٦).

مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٣] ؛ ولهذا كان المحققون على أن الشهادتين أول واجبات الدين، كما عليه خلص أهل السنة، وذكره منصور السمعانى والشيخ عبد القادر وغيرهما؛ وجعله أصل الشرك ؛ وغيروا بذلك ملة التوحيد التى هى أصل الدين ؛ كما فعله قدماء المتفلسفة . الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله .

ومن أسباب ذلك : الخروج عن الشريعة الخاصة التى بعث الله بها محمدًا ﷺ ، إلى القدر المشترك الذى فيه مشابهة الصابئين ، أو النصارى ، أو اليهود ، وهو القياس الفاسد، المشابه لقياس الذين قالوا: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [ البقرة : ٢٧٥] فيريدون أن يجعلوا السماع جنسًا واحدًا ، والملة جنسًا واحدًا، ولا يميزون بين مشروعة ومبتدعة، ولا بين المأمور به والمنهى عنه. فالسماع الشرعى الدينى سماع كتاب الله وتزيين الصوت به وتحبيره. كما قال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم » (١) ، وقال أبو موسى : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرًا. والصور ، والأزواج ، والسرارى التى أباحها الله تعالى، / والعبادة: ١/٧٧
عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ . رِجَالٌ ﴾ [النور : ٣٦، ٣٧] .

وهذا المعنى يقرر قاعدة اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم، وينهى أن يشبه الأمر الدينى الشرعى بالطبيعى البدعى، لما بينهما من القدر المشترك كالصوت الحسن ، ليس هو وحده مشروعا حتى ينضم إليه القدر المميز ، كحروف القرآن ، فيصير المجموع من المشترك ، والمميز هو الدين النافع .

(١) البخارى فى التوحيد معلقا (الفتح ١٣/٥١٨) ، وأبو داود فى الصلاة (١٤٦٨)، والنسائى فى الافتتاح (١٠١٥)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٤٢) ، والدارمى فى فضائل القرآن ٢ / ٤٧٤ ، وأحمد ٤/٢٨٣، ٢٩٦ كلهم عن البراء بن عازب رضى الله عنه .

/ وقال ـ رحمه الله :

## فصـل

### فى ألا يسأل العبد إلا الله

قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [الشرح: ٧، ٨] قال النبى ﷺ لابن عباس: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» (١) . وفى الترمذي «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر»(٢) ، وفى الصحيح، أنه قال لعدى بن مالك والرهط الذين بايعهم معه: «لا تسألوا الناس شيئًا» فكان سوط أحدهم يسقط من يده ، فلا يقول لأحد : ناولنى إياه (٣) ، وفى الصحيح فى حديث السبعين ألفا، الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يَسْتَرقونُ ، ولا يكْتَوُون ، ولا يتَطيَّرُون » (٤) ، والاسترقاء طلب الرقية، وهو نوع من السؤال.

وأحاديث النهى عن مسألة الناس الأموال كثيرة كقوله : «لا تحل المسألة إلا لثلاثة . . .»(٥) ، وقوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله . . . » الحديث (٦) ، وقوله : « لا تزال المسألة بأحدهم . . . » (٧) ، وقوله : « من سأل الناس وله ما يغنيه . . . » (٨) ، وأمثال ذلك. وقوله : « من نزلت به فاقَةٌ فأنزلها بالناس، لم تسد فاقته» الحديث (٩).

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٦ .

(٢) الحديث فى تحفة الأشراف ١/ ١٠٧ وعزاه للترمذى ، وهذا الحديث سقط من النسخة المطبوعة، وكذا عزاه ابن حجر فى الفتح ٢/ ٣٠٠ للترمذى ، وانظر :موارد الظمآن (٢٤٠٢) ، كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٣) مسلم فى الزكاة (١٠٤٣/ ١٠٨) .

(٤) البخارى فى الطب (٥٧٠٥) ، ومسلم فى الإيمان (٢١٨/ ٣٧٢)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٤٦)، وأحمد ١/ ٢٧١، ٤٠١، ٤٠٣ .

(٥) مسلم فى الزكاة (١٠٤٤/ ١٠٩) ، وأبو داود فى الزكاة (١٦٤٠) ، والنسائى فى الزكاة (٢٥٧٩)، وأحمد ٣/ ١١٤، ١٢٧ ، كلهم عن قبيصة بن مخارق ما عدا أحمد فعن أنس.

(٦) البخارى فى الزكاة (١٤٧٠) ، والنسائى فى الزكاة (٢٥٨٩)، وأحمد ٢/ ٢٥٧، ٣٠٠، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٧) مسلم فى الزكاة (١٠٤٠/ ١٠٣) ، وأحمد ٢/ ١٥، ٨٨، كلاهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

(٨) أبو داود فى الزكاة (١٦٢٦)، والترمذى فى الزكاة (٦٥٠) وقال: «حديث حسن»، والنسائى فى الزكاة (٢٥٩٢)، وابن ماجه فى الزكاة (١٨٤٠) ، وأحمد ١/ ٤٤١، كلهم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٩) أبو داود فى الزكاة (١٦٤٥) ، والترمذى فى الزهد (٢٣٢٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، وأحمد ١/ ٤٠٧، ٤٤٢، كلهم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

١/٧٩ فأما سؤال ما يسوغ مثله من العلم، فليس من هذا الباب؛ لأن المخبر/ لا ينقص الجواب من علمه بل يزداد بالجواب ، والسائل محتاج إلى ذلك ، قال ﷺ : « هلا سألوا إذا لم يعلموا ؟ فإن شفاء العيِّ السؤال » (١) . ولكن من المسائل ما ينهى عنه ، كما قال تعالى: ﴿ لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاء ﴾ [المائدة: ١٠١]. وكنهيه عن أغلوطات المسائل ونحو ذلك .

وأما سؤله لغيره أن يدعو له : فقد قال النبى ﷺ لعمر : « لا تنسنا من دعائك» (٢) ، وقال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلَّى عليَّ مرة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حَلَّتْ له شفاعتى يوم القيامة » (٣) ، وقد يقال فى هذا : هو طلب من الأمة الدعاء له ؛ لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم. كما قال للذى قال: أجعل صلاتى كلها عليك ؟ فقال: « إذًا يَكْفِيكَ الله ما أهَمَّكَ من أمر دنياك وآخرتك» (٤) ، فطلبه منهم الدعاء له لمصلحتهم ، كسائر أمره إياهم بما أمر به ، وذلك لما فى ذلك من المصلحة لهم، فإنه قد صح عنه أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا دعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثله » (٥) .

---

(١) أبو داود فى الطهارة (٣٣٧) ، وابن ماجه فى الطهارة (٥٧٢) ، وأحمد ١/ ٣٣٠، كلهم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

و «العَىُّ» : الجهل. انظر : النهاية ٣/ ٣٣٤.

(٢) أبو داود فى الصلاة (١٤٩٨) ، والترمذى فى الدعوات (٣٥٦٢) وقال: « هذا حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٤) ، كلهم عن عمر رضى الله عنه .

(٣) مسلم فى الصلاة (٣٨٤/ ١١) ، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣) ، والترمذى فى المناقب (٣٦١٤) وقال: «هذا حديث حسن صحيح »، والنسائى فى الأذان (٦٧٨) ، وأحمد ٢/ ١٦٨، كلهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

(٤) الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٧)، وقال: « هذا حديث حسن صحيح » بلفظ: أجعل لك صلاتى كلها ؟ قال: « إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك ».

(٥) مسلم فى الذكر والدعاء (٨٦/٢٧٣٢ ، ٨٧ ، ٨٨/٢٧٣٣) ، وابن ماجه فى المناسك (٢٨٩٥) ، وأحمد ٥/ ١٩٥. وذكره الإمام ابن تيمية بمعناه .

/ وقال شيخ الإسلام ـ رحمه الله : ١/٨٠

## فصل

العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الهوى والابتداع ، فإن الإسلام مبنى على أصلين :

أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له. والثانى: أن نعبده بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع ، قال الله تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ﴾ الآية [الجاثية: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾ [الشورى: ٢١] .

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله ﷺ ، من واجب ومستحب، لا نعبده بالأمور المبتدعة، كما ثبت فى السنن من حديث الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ . قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١) . وفى مسلم أنه كان يقول فى خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة» (٢) .

وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده، فلا يصلى إلا لله، ولا يصوم إلا لله، / ولا ١/٨١
يحج إلا بيت الله ، ولا يتوكل إلا على الله، ولا يخاف إلا الله ، ولا ينذر إلا لله، ولا يحلف إلا بالله. وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو لِيَصْمُتْ» (٣) . وفى السنن: «من حلف بغير الله فقد أشرك» (٤) ، وعن ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقا (٥) ؛ لأن الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله توحيد. وتوحيد معه كذب، خير

---

(١) أبو داود فى السنة (٤٦٠٧) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٦) ، وقال: « هذا حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه فى المقدمة (٤٢) ، والدارمى فى المقدمة ١/ ٤٤، وأحمد ٤/ ١٢٦، ١٢٧ ، ونص الحديث : «. . . وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة . . .».

(٢) مسلم فى الجمعة ( ٨٦٧ / ٤٣ ) .

(٣) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم فى الأيمان (٣/١٦٤٦) ، كلاهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(٤) أبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٥١) ، والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٣٥) وقال: «هذا حديث حسن»، وأحمد ٢/ ٣٤، ٩٦، كلهم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

(٥) الطبرانى فى الكبير ٩/ ٢٠٥ (٨٩٠٢) ، وذكره الهيثمى فى المجمع ٤/ ١٨٠ وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورجاله رجال الصحيح ».

من شرك معه صدق، ولهذا كان غاية الكذب أن يعدل بالشرك، كما قال النبى ﷺ : «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله» مرتين أو ثلاثا (١) . وقرأ قوله تعالى : ﴿**ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق**﴾ [الحج: ٣١] ، وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك، فكيف الناذر لغير الله؟ والنذر أعظم من الحلف؛ ولهذا لو نذر لغير الله فلا يجب الوفاء به ، باتفاق المسلمين . مثل أن ينذر لغير الله صلاة، أو صوما ، أو حجا، أو عمرة ، أو صدقة.

ولو حلف ليفعلن شيئا، لم يجب عليه أن يفعله، قيل: يجوز له أن يكفر عن اليمين، ولا يفعل المحلوف عليه، كما قال النبى ﷺ : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذى هو خير ، وليُكَفِّر عن يمينه » (٢) ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتى بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل » (٣) ، فإذا كان النذر لا يأتى بخير فكيف بالنذر للمخلوق؟ ولكن النذر لله يجب الوفاء به إذا كان فى طاعة، وإذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء، وإنما تنازعوا : / هل فيه بدل ، أو ١/٨٢
كفارة يمين ، أم لا ؟ لما رواه البخارى فى صحيحه ، عن النبى ﷺ أنه قال: « من نَذَرَ أن يطيع الله فَلْيُطِعْه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يَعْصِه » (٤) .

فمن ظن أن النذر للمخلوقين يجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، فهو من الضالين كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة ، أو تدفع عنهم مضرة .

وهؤلاء المشركون قد تتمثل لهم الشياطين ، وقد تخاطبهم بكلام ، وقد تحمل أحدهم فى الهواء، وقد تخبره ببعض الأمور الغائبة ، وقد تأتيه بنفقة أو طعام، أو كسوة ، أو غير ذلك ، كما جرى مثل ذلك لعباد الأصنام من العرب وغير العرب ، وهذا كثير ، موجود فى هذا الزمان، وغير هذا الزمان ، للضالين المبتدعين المخالفين للكتاب والسنة ، إما بعبادة غير الله، وإما بعبادة لم يشرعها الله.

---

(١) أبو داود فى الأقضية (٣٥٩٩)، وابن ماجه فى الأحكام (٢٣٧٢) ، وأحمد ٤/ ٣٢١ كلهم عن خريم بن فاتك الأسدى ، وضعفه الألبانى .

(٢) مسلم في الأيمان (١٦٥٠/ ١٣) ، والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٣٠) وقال: «حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح » ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والكفارات (٤٧٢٢/ ٢) كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٧٧) ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والكفارات (٤٧٢٤/ ٤) كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه .

(٣) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٩٢) ، ومسلم فى النذر (١٦٣٩/ ٤) كلاهما عن عبد الله بن عمر واللفظ لمسلم.

(٤) البخارى فى الأيمان والنذور (٦٧٠٠) عن عائشة رضى الله عنها.

وهؤلاء إذا أظهر أحدهم شيئا خارقا للعادة لم يخرج عن أن يكون حالا شيطانيا، أو محالا بهتانيا فخواصهم تقترن بهم الشياطين، كما يقع لبعض العقلاء منهم ، وقد يحصل ذلك لغير هؤلاء،لكن لا تقترن بهم الشياطين إلا مع نوع من البدعة ،إما كفر، وإما فسق ، وإما جهل بالشرع . فإن الشيطان قصده إغواء بحسب قدرته، فإن قدر على أن يجعلهم كفارًا جعلهم كفارًا وإن لم يقدر إلا على جعلهم فساقا ، أو عصاة ، وإن لم يقدر إلا على نقص عملهم ودينهم ، ببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التى بعث الله بها رسوله ﷺ فينتفع منهم بذلك!!

/ ولهذا قال الأئمة : لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء أو يمشى على الماء، فلا تغتروا ١/٨٣
به، حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهى، ولهذا يوجد كثير من الناس يطير فى الهواء وتكون الشياطين هى التى تحمله، لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين.

ومن هؤلاء : من يحمله الشيطان إلى عرفات فيقف مع الناس ، ثم يحمله فيرده إلى مدينته تلك الليلة، ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء الله ، ولا يعرف أنه يجب عليه أن يتوب من هذا ، وإن اعتقد أن هذا طاعة وقربة إليه ، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ لأن الحج الذى أمر الله به ورسوله لابد فيه من الإحرام، والوقوف بعرفة ، ولابد فيه من أن يطوف بعد ذلك طواف الإفاضة ؛ فإنه ركن لا يتم الحج إلا به ، بل عليه أن يقف بمزدلفة، ويرمى الجمار ويطوف للوداع، وعليه اجتناب المحظورات ، والإحرام من الميقات ، إلى غير ذلك من واجبات الحج . وهؤلاء الضالون الذين يضلهم الشيطان يحملهم فى الهواء، يحمل أحدهم بثيابه ، فيقف بعرفة ويرجع من تلك الليلة . حتى يرى فى اليوم الواحد ببلده ويرى بعرفة .

ومنهم من يتصور الشيطان بصورته ويقف بعرفة ، فيراه من يعرفه واقفًا ، فيظن أنه ذلك الرجل وقف بعرفة ! فإذا قال له ذلك الشيخ: أنا لم أذهب العام إلى عرفة، ظن أنه ملك خلق على صورة ذلك الشيخ، وإنما هو شيطان تمثل على صورته ، ومثل هذا وأمثاله يقع كثيرًا ، وهى أحوال شيطانية ، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ [الزخرف: ٣٦] . وذكر الرحمن هو الذكر الذى أنزله على نبيه ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [الحجر:٩] وقال تعالى : ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى** ﴾ إلى قوله: ﴿ **كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى** ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦ ] ونسيانها هو ترك الإيمان والعمل بها ،وإن حفظ حروفها،قال ابن عباس : تكفل الله لمن ١/٨٤

قرأ القرآن وعمل بما فيه ، ألا يَضِلَّ فى الدنيا ، ولا يَشْقَى فى الآخرة وقرأ هذه الآية ، فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ من الكتاب والحكمة هداه الله وأسعده ، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى ، وأضله الشيطان وأشقاه .

فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببه الإيمان ، فإن هذه حال أوليائه : قال تعالى : ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [ يونس : ٦٢ ، ٦٣ ] وتكون نعمة لله على عبده المؤمن فى دينه ودنياه ، فتكون الحجة فى الدين والحاجة فى الدنيا للمؤمنين، مثل ما كانت معجزات نبينا محمد ﷺ : كانت الحجة فى الدين والحاجة للمسلمين ، مثل البركة التى تحصل فى الطعام والشراب ، كنبع الماء من بين أصابعه ،و مثل نزول المطر بالاستسقاء، ومثل قهر الكفار وشفاء المريض بالدعاء، ومثل الأخبار الصادقة ، والنافعة بما غاب عن الحاضرين ، وأخبار الأنبياء لا تكذب قط .

وأما أصحاب الأحوال الشيطانية ، فهم من جنس الكهان ، يكذبون تارة ويصدقون أخرى ، ولابد فى أعمالهم من مخالفة للأمر ، قال تعالى : ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] .

١/٨٥ ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء ملابسا الخبائث من النجاسات والأقذار ، / التى تحبها الشياطين ، ومرتكبا للفواحش ، أو ظالما للناس فى أنفسهم وأموالهم ، وغير ذلك ، والله تعالى قد حرم ﴿**الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ**﴾ الآية [ الأعراف: ٣٣ ] .

وأولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور ، وهذه جملة لها بسط طويل لا يتسع له هذا المكان ، والله أعلم .

/ وقال شيخ الإسلام : ١/٨٦

## فصل جامع

قد كتبتُ فيما تقدم فى مواضع قبلُ بعض القواعد، وآخر مسودة الفقه : أن جماع الحسنات العدل ، وجماع السيئات الظلم ، وهذا أصل جامع عظيم.

وتفصيل ذلك : أن الله خلق الخلق لعبادته ، فهذا هو المقصود المطلوب لجميع الحسنات ، وهو إخلاص الدين كله لله ، وما لم يحصل فيه هذا المقصود ، فليس حسنة مطلقة مستوجبة لثواب الله فى الآخرة ، وإن كان حسنة من بعض الوجوه له ثواب فى الدنيا ، وكل ما نهى عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة ، ووضع للشىء فى غير موضعه فهو ظلم .

ولهذا ؛ جمع بينهما ـ سبحانه ـ فى قوله : ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [ الأعراف : ٢٩] فهذه الآية فى سورة الأعراف المشتملة على أصول الدين ، والاعتصام بالكتاب ، وذم الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، كالشرك وتحريم الطيبات ، أو خالفوا ما شرعه الله من أمور دينهم ؛ كإبليس ، ومخالفى الرسل من قوم نوح إلى قوم فرعون ، والذين بدلوا الكتاب من أهل الكتاب ، فاشتملت السورة على ذم من أتى بدين باطل ككفار العرب ، ومن خالف الدين الحق كله كالكفار بالأنبياء ، أو بعضه ككفار أهل الكتاب .

وقد جمع ـ سبحانه ـ فى هذه السورة وفى الأنعام وفى غيرهما ذنوب المشركين فى نوعين :

/ أحدهما : أمر بما لم يأمر الله به كالشرك ، ونهى عما لم ينه الله عنه كتحريم ١/٨٧
الطيبات ، فالأول : شرع من الدين ما لم يأذن به الله . والثانى: تحريم لما لم يحرمه الله .

وكذلك فى الحديث الصحيح حديث عياض بن حمار ، عن النبى ﷺ ، عن الله تعالى : « إنى خلقت عبادى حُنَفَاء فاجتالتهم الشياطين ، فحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا » (١) .

ولهذا كان ابتداع العبادات الباطلة ، من الشرك ونحوه ، هو الغالب على النصارى

---

(١) مسلم فى الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥/٦٣) .
و « اجتالتهم الشياطين » : أى استخفتهم ، فجالوا معهم فى الضلال . انظر : النهاية ١/٣١٧ .

ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة ، والمتصوفة . وابتداع التحريمات الباطلة هو الغالب على اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة ، بل أصل دين اليهود فيه آصار وأغلال من التحريمات ؛ ولهذا قال لهم المسيح : ﴿ **وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُم**﴾ [ آل عمران : ٥٠ ] ، وأصل دين النصارى فيه تأله بألفاظ متشابهة ، وأفعال مجملة ، فالذين فى قلوبهم زيغ اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما قررته فى غير هذا الموضع : بأن توحيد الله الذى هو إخلاص الدين له ، والعدل الذى نفعله نحن هو جماع الدين يرجع إلى ذلك ، فإن إخلاص الدين لله أصل العدل ، كما أن الشرك بالله ظلم عظيم .